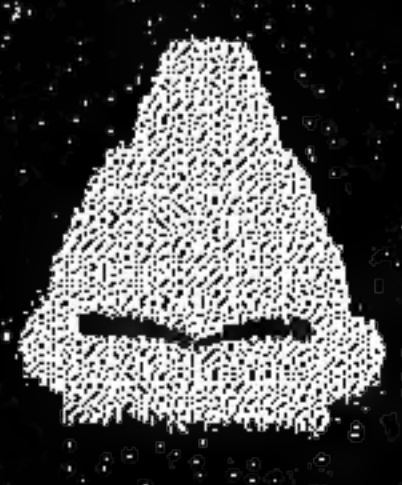


الشخصية الإنسانية

في ضوء القرآن الكريم

د. أحمد عبد الحيد غراب



الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم

يقام
د. أحمد عبد الحميد غراب



المكتبة الوطنية العامة للكتاب

١٩٨٥

الاخراج الفنى : زهور السلام شاكِر

مقدمة

حقائق الاسلام لا تفاوت فيها ، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان ! لكن التعريف بالاسلام قد يحتاج الى شيء من التأني والتصرف حسب ما يواجه الكاتب من شبهات تثار ، أو عقبات تقام ، أو أسئلة تعرض ، وعندئذ يبذل المؤلف جهده في رد الشبهة وإزاحة العوائق ، وشرح الغوامض وإبراز ما قد يخفى من محاسن ٠٠٠ وعصرنا هذا بحاجة الى علماء مهرة يمهّدون طريق الدعوة ، ويتلطفون في إيصالها الى الأئمة ويقدمون الوحي الأعلى مغنيا عن كل ما انشغل الناس به من أهواء ومذاهب ٠٠

والأستاذ الدكتور أحمد غراب رجل واسع الاطلاع على العلوم الدينية ، والثقافات الغربية أو على الاسلام والمذاهب المقابلة له ، وقد أعانته هذه السعة على وضع دراسة « لتصنيف الشخصية الانسانية في ضوء القرآن الكريم » حسب تعبيره ، أو رسم الرحلة من الظلمات الى النور وإخراج الناس من الظلمات الى النور انعام الهى يحظى به من والاهم الله من خلقه ، وأيدهم بروح من عنده « الله ولى الدين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ٠٠٠ » بيد أن هذه النعمة لها مفاتيحها وخزائنها ، لها رجال يهدون بالحق ويدعون على بصيرة ، والكتاب الذى بين أيدينا يحتوى على ثروة كبيرة من التوجيهات الراشدة والقضايا الصائبة ، ألفه رجل آتاه الله خبرة بأحوال العصر ، وطبائع الجماعة الاسلامية هنا وهناك ، وله المام دقيق بتاريخنا الثقافى ، واحساس بالزاد الفكرى والروحى الذى يناسب أمتنا فى هذه الأيام مع سهولة فى الأسلوب واشراق فى الأداء نسأل الله النفع به .

محمد الغزالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - مقدمة

الشخصية الانسانية فى غير الاسلام

يقوم تصنيف الشخصية الانسانية فى غير الاسلام على مقاييس بشرية جاهلية مختلفة ، تركز فى معظمها على الاهواء والظنون .

فبعضها يقيم شخصية الانسان من حيث الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها أو من حيث جنسه أو لون جلده ، أو مقدار دخله ، أو من حيث قوميته أو وطنه ، وبعضها يقيم شخصية الانسان من حيث بنية جسمه أو تركيب مزاجه ، وبعضها الآخر يقيم الانسان من حيث موقفه من الناس .

فالهنود - طبقا لديانتهم الهندوسية - يقسمون الناس حسب طبقاتهم ، ويقيمون شخصية كل انسان حسب الطبقة التى ينتمى اليها : فاسمى شخصية هى شخصية الانسان الذى ينتمى لطبقة الكهنة (البراهمة) ، وتليها شخصية من ينتمى لطبقة المحاربين (الكشترى) ، ثم من ينتمى لطبقة التجار والصناع والفلاحين (الویشيا) ، وأخيرا من ينتمى لطبقة الخدم والعبيد (الشودرا) . وترجع أصول الطبقتين الأوليين الى الجنس الأرى ، والآخرين الى الجنس الطوراني .

وهناك طائفة أخرى أسوأ من طبقة الخدم والعبيد وهى طائفة المنبوذين (The Untouchable) وتعتبر هذه الطائفة عندهم أخط من أن تدخل فى التقسيم الاجتماعى ، ويعامل أفرادها كأنهم حيوانات أو أقل مستوى ، وهم محرومون من حقوق الانسان ، وأحق الحرف مقصورة عليهم ، وأبواب العلم موصدة فى وجوههم ، والانسان الذى ينتمى لهذه الطائفة (أو لآى طبقة أخرى) لا يسمح له بالترقى الى طبقة أعلى . فالمنبوذ يظل منبوذا طول حياته ، ولا ذنب له الا انتماؤه لتلك الطبقة ، أما من ينتمى

لطبقة الكهنة فيظل ممتازا طول حياته ولا فضل له سوى انتمائه لتلك الطبقة . ويربطون هذا التقسيم الطبقي بنص ديني هندوكي يقول « ان الاله برهما خلق البرهمي من فمه ، والكشتريا من ذراعه ، والویشيا من فخذه ، والشودرا من رجله ، فكان لكل من الطبقات منزلته على هذا النحو . أى أن هذا التقسيم أبدي لا يتغير لأنه من صنع الاله . ويقرر أبو الريحان البيروني أن هذه الطبقيّة الصارمة حالت بين كثير منهم وبين اعتناق الاسلام ، وذلك لمساواة الاسلام بين الناس الا بالتقوى (١) .

وهذه النظرة الى الانسان من خلال طبقتة لم تكن مقصورة على المجتمع الهندي بل كانت سائدة في المجتمع الفارسي القديم (٢) ، وبين اليونان والرومان ، بل مازالت سائدة في بعض المجتمعات الغربية الحديثة « المتحضرة » فبالرغم من أن بريطانيا مثلا لا تفتأ تزعم أنها موطن الديمقراطية لا يزال الاحساس الطبقي فيها قويا ولا سيما بين أفراد الطبقة الأرستقراطية التي ما زال انتماء الفرد اليها يعد سمة من سمات النبيل ، وما زال يكسبه مزايا « وراثية » لم يكن ليحلم بالحصول عليها لو كان من الطبقة العاملة .

أما معاملة السود في أمريكا فهي أشهر من أن تذكر ، ويكفي أن نشير الى أنه في المجتمع الأمريكي تقيم شخصية الانسان غالبا حسب لون جلده فإذا كان هذا اللون أبيض حكم لصاحبه بالتفوق والامتياز ، وإذا كان أسود حكم عليه بالتخلف العقلي والخلقى وعوقب بأنواع من العقوبات الاجتماعية فيها كثير من الامتهان لانسانيته ، كأن يحرم هو وأولاده مثلا من وظائف ومطاعم ومدارس معينة مقصورة على البيض ، وما ذاك الا بسبب لونه ، وهو شيء ليس من صنعه بل من صنع الله .

وتنوع ألوان البشر كتنوع لغاتهم ظاهرة لا علاقة لها في الاسلام بتفوق الانسان أو تخلفه ، وإنما تدل على قدرة الله وحكمته في الخلق ومن ثم تعد آية من آياته التي ينبغي على العلماء دراستها . قال تعالى :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (الروم ٢٢/٣٠)

(١) راجع البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ - ٧٧ . وأحمد شلبي : اديان الهند الكبرى ص ٥٣ .

(٢) راجع البيروني : السابق ص ٧٥ ، والمسعودي : التنبيه والاشراف ص ٩٠ وكريسستن : ايران في عهد الساسانيين ص ٨٥ وما بعدها .

والهدف فى الاسلام من دراسة اللغات والأجناس هو تحقيق التعارف والتعاون بين الشعوب ، لا اثاره العداوة والبغضاء بينها ؛ بدعوى العصبية العمياء . قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣/٤٩) .

ومعروف أن تعصب الحضارة المادية فى الغرب قد أدى الى نشأة « نظريات » تزعم تفوق الرجل الأبيض والجنس الأرى والانسان الأعلى . ومعروف كذلك أن الغرب قد التمس فى هذه النظريات تبريرا لاستعمارهم للشعوب الأخرى ، واستعباده الجماعى لأحرارها ، ونهبه المنظم لترواتها .

واذا تركنا هذه التصنيفات التى تقوم على التعصب والهوى الى تصنيفات أخرى نلبس مسوح العلم فسنجد بها بعض ما يفيد ولكن سنجد أنها تقوم أساسا على الظن لاعلى اليقين .

ومن أهم هذه التصنيفات ثلاثة :

١ - التصنيف الطبى القديم لشخصية الانسان حسب مزاج البدن الى أربعة أنواع : دموى (حاد الطبع) ، وبلغمى (بارد الطبع) ، وصفراوى (غضوب) ، وسوداوى (متشائم) .

٢ - التصنيف النفسى : ففى علم النفس الحديث نجد التصنيف المعروف الذى وضعه عالم من أشهر علماء النفس وهو يونج (Jung) الذى صنف شخصية الانسان الى نوعين : انطوائى Introvert وانبساطى Extrovert

٣ - وهناك تصنيف ثالث أحدث عهدا يربط شخصية الانسان بنوع بنية جسمه ، وعلى اساس هذا الارتباط يقسم الشخصية الانسانية الى ثلاثة أنواع (١) :

١ - الشخصية الاجتماعية : وهى شخصية الانسان الذى يحب الاختلاط بالناس ؛ ولا يكاد يطيق فراقهم ، ويكره العزلة والتأمل ، ويحب الطعام (ولا سيما مع الناس) ، والمال والراحة والترف . وعندما تنتابه

(١) راجع : A. Huxley : The Perennial Philosophy, p. 156-9:

أزمة ، أو يقع في شدة ، يهرع الى الناس طالبا عونهم ، أو على الأقل صحتهم ! وجسمه يتميز بالنعومة والرخاوة والميل الى السمنة !

٢ - الشخصية المحبة للسيطرة : وهي شخصية الانسان الذي يهوى ممارسة النشاط البدنى . ويحب السلطة والقوة ومظاهرهما ، كما يحب التنافس والتغلب على الآخرين ، ولا يبالي بما يعاني في سبيل ذلك من آلام ، كما لا يبالي بمشاعر الناس . وإذا وقع في شدة حاول التغلب عليها عن طريق القيام بأنشطة بدنية (كالرياضة) وبنية جسمه قوية تمكنه من تحمل المشاق ، وعظامه كبيرة ، وعضلاته مفتولة ! .

٣ - الشخصية المحبة للتفكير : وهي شخصية الانسان الذي لا يهتم كثيرا بالعالم الخارجى ، ولا يستريح الى لقاء الناس ، وهو حى وعصبى اذا اضطر الى الاجتماع بهم ، وهو يحب العزلة والانطواء ، والتفكير والتأمل . ولا يكف عن نقد الناس والمجتمع من حوله ، ولا يبالي بجمع المال ، ويحتقر حياة الترف ومظاهر القوة البدنية والسلطة ، ويتميز بحساسية مرهفة . أما جسمه فهزيل ، دقيق العظام ، ضعيف العضلات !

ومن الواضح أن هذا التصنيف فيه بعض الحق وبعض الفائدة ، ولا سيما فى امكانية استخدام هذه الخصائص النفسية فى التربية .

ولكن كل هذه التصنيفات تقوم على الظنون :

فالتصنيف الطبى يجعل مزاج الجسم هو الحاسم فى تحديد شخصية الانسان ، اذ يجعل كل قواه النفسية والعقلية خاضعة وتابعة لعناصر جسمه . ولا شك أن للجسم أثرا فى تفكير الانسان وشعوره وسلوكه ، ولكنه ليس العامل الوحيد ؛ فضلا عن أن يكون العامل الحاسم . فمن المعروف أن ما يشغل عقل الانسان ووجدانه من تفكير وشعور يؤثر فى جسمه ، فالقلق مثلا قد يسبب أمراضا كقرحة المعدة . والانفعال الشديد يؤثر على القلب ، وسلوك الاشرار كاللصوص والقتلة يؤدي عاجلا أو آجلا الى سوء صحتهم . ومن المعروف كذلك أن الارادة الانسانية الواعية لها أكبر الأثر ليس على جسم الانسان فحسب بل فى توجيه حياته كلها . وهذا التصنيف فى الحقيقة يكاد يلغى كل أثر للارادة الانسانية ، اذ يخضع الانسان لنوع من « الجبرية » الجسدية تجعله محكوما فى كل تصرفاته وأعماله ببنية جسمه التى لا دخل له فى تركيبها أو خلقها .

والتصنيف النفسي : لشخصيات الناس الى نوعين : انطوائى وانبساطى يقوم على نظرة خاطئة ، تنقضها ملاحظاتنا اليومية لأنواع ونماذج شتى من الشخصيات . كما أن هذا التصنيف يجعل العلاقات الاجتماعية بالناس هي المقياس النهائى لتقييم شخصية الانسان ، فهو إما انطوائى أو انبساطى بالنسبة لهم . وسنرى أن هذا المقياس ليس صحيحا .

أما التصنيف الأخير فينتقد من عدة وجوه :

- ١ - أنه كالتصنيف الطبى يقوم على الربط بين نوع معين من الجسم ونوع معين من الشخصية ، وأن العامل الحاسم فى هذه العلاقة هو الجسم ، وقد بينا خطأ هذه الفكرة وما تؤدى اليه من جبرية .
- ٢ - أن الانسان الواحد قد يجمع فى شخصيته بين كل هذه الخصائص فيكون قوى الجسم ، اجتماعيا ، ذا سلطة ؛ ومع ذلك يكون ذا حساسية مرهفة وتفكير عميق . وقد اصطفى الله طالوت ملكا على بنى اسرائيل ؛ وكان من أسباب اصطفاؤه أن الله :

« زاده بسطة فى العلم والجسم » (البقرة ٢٤٧/٢)

وكثير من العلماء والمفكرين يتمتعون بأجسام قوية وصحة جيدة . وكان كثير من علمائنا المسلمين مجاهدين قاتلوا بسيوفهم فى سبيل الله ؛ وكان لهم من الكفاءة البدنية و« اللياقة » العسكرية ما جعلهم جنودا ودعاة فى آن واحد . وكان أسوتهم الحسنة فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أوتى أشرف العلم وهو علم النبوة ، وأشرف الحكم وهو خير أمة أخرجت للناس ، كما أوتى قوة فى الجسم جعلته لا يصارع أحدا الا صرعه .

- ٣ - أن التصنيفات النفسية الحديثة - ومنها التصنيف الأخير - تتجه غالبا الى أن تجعل الناس فى هذه الدنيا هم المقياس النهائى لتقييم الشخصية . أى أن علاقة الانسان بالناس ونوع هذه العلاقة ، وما اذا كانت ترضيهم أو تسخطهم ، هي التى تحدد نوع شخصية الانسان ، وما اذا كان اجتماعيا أو انطوائيا أو محبا للمغامرة أو للتأمل . وسنرى فى هذه الدراسة أن هذا خطأ وضلال بعيد ، لأن الناس فى تقييمهم لانسان ما ، أو حكمهم له أو عليه ، يكونون غالبا مدفوعين بأهوائهم وما يظنون أن ذلك الانسان يجلبه لهم من نفع ، أو يدفع عنهم من ضرر ، فاذا كان فى ظنهم ينفع ويضر نافقوه ، وان كان بعكس ذلك أهملوه أو لم يقدروه حق قدره .

ومن ناحية أخرى فإن جعل السلطة النهائية للحكم للفرد أو عليه في يد المجتمع يؤدي الى إخضاع الانسان لاتجاه الأغلبية ، أو على الأقل الى الضغط الشديد عليه ليخضع لاتجاه الأغلبية ، مهما كان هذا الاتجاه فاسداً (كما هو الحال في الديمقراطية الغربية الحديثة ووسائل الاعلام المعاصرة) .

والاسلام يوجب على المسلم أن يؤيد الاتجاه الحسن ، ويقاوم الاتجاه الخبيث مهما كثر أنصاره .

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (المائدة ١٠٠/٥)

ولذلك ينهى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم أن يكون امعة فيقول : « لا يكن أحدكم امعة يقول : أنا مع الناس ان أحسنوا أحسنن وان أساءوا أسأت ؛ ولكن وطنوا انفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساءوا أن تجتنبوا أساءتهم » (الترمذى) .

مقياس القرآن

القرآن لا يقيم شخصية الانسان من خلال طبقته أو جنسه أو قوميته أو بنية جسمه أو لون جلده أو مواقفه من الناس . فهذه كلها أحكام تصدر عن اهواء البشر ، ووطنونهم ، وتمثل ضلالهم بسبب بعدهم عن الله :

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم ٢٣/٥٣)

للقرآن مقاييس أخرى في تقييم شخصية الانسان ترجع كلها الى مقياس واحد وهو : موقف الانسان من هدى الله

وهذه الدراسة هي محاولة لبيان التصنيف القرآني للشخصية الانسانية على أساس هذا المقياس . .

وهي كذلك دراسة نفسية تربوية هادفة ، تقوم على هدى القرآن الكريم .

ومن أهم الأسباب التي دفعتنى الى هذه الدراسة ما يلى :

١ - أن معظم ما هو متاح للدارس المسلم اليوم (طالبا واستاذاً)

فى موضوع الشخصية الانسانية هو كتابات الغربين ولا سيما فى التربية وعلم النفس . وهذه الكتابات وان كان فيها عناصر يجب الاستفادة منها لأن الحكمة ضالة المؤمن - فهى أساسا تمثل وجهة النظر العلمانية اللاحادية السائدة فى علوم الغرب بوجه عام ، وفى التربية وعلم النفس بوجه خاص . ومن الواجب على المسلمين ألا يكتفوا بنقد وجهة النظر هذه ، بل أن يقدموا البديل عنها ، وهى وجهة النظر الإسلامية .

٢ - أن الدراسات الإسلامية المعاصرة فى هذا الموضوع ، وهى التى يمكن أن توصف بأنها مستمدة من مصادر الاسلام (ولا سيما من القرآن والسنة) وممثلة لوجهة النظر الإسلامية، ومكتوبة بأقلام مسلمين ملتزمين - مازالت قليلة . وبعض هذا القليل ينجح إلى الخطايا والمبالغات ، أو يكتب بروح اعتذارية انهزامية ، أو يكتب من وجهة نظر لا إسلامية (علمانية غربية غالبا) ثم يلبس منشوحا إسلامية ويعطى مصطلحات إسلامية (كالقول مثلا بأن الضمير هو النفس اللوامة !) .

٣ - أكثر من أعطى موضوع تربية الشخصية المسلمة حقه من علمائنا المسلمين هم علماء الأخلاق والصوفية الملتزمون بالكتاب والسنة ، كالامام الغزالي فى كتابه : **احياء علوم الدين** .

ولكن بعضهم خلطوا الأفكار الصالحة المستمدة من القرآن والسنة بأفكار أخرى مستمدة من مصادر غير إسلامية : كالمصادر الهندية واليونانية والمسيحية .

٤ - أن معظم المفكرين المسلمين المعاصرين (الا قلة أشرت اليهم واستفدت منهم فى هذه الدراسة) يعطون الموضوعات السياسية والحكومة والاقتصاد والتشريع اهتماما أكبر مما يعطون لموضوع الشخصية المسلمة . ولا شك أن تلك الموضوعات تستحق الاهتمام الشديد ، ولكن موضوع الشخصية المسلمة لا يقل عنيا أهمية ان لم يزد . فمن الحقائق التى ادركها وأكدها قادة ومفكرو الحركة الإسلامية المعاصرة - كالامام حسن البنا والأستاذ المودودي رحمهما الله والأستاذ أبو الحسن الندوى أطال الله عمره - أنه لا يمكن قيام حكومة إسلامية أو تشريع أو اقتصاد مالم توجد الشخصيات المسلمة التى تتولى هذه المهام ، بل لا يمكن قيام أى نوع من التنظيم الإسلامى الا اذا كانت لبناته سليمة .

٥ - ان الاسلام يقدم للناس غالبا فى صورة مبادئ وتعاليم نظرية والحقيقة أن عظمة الاسلام تتجلى دائما فى شخصيات حية : تفهمه حق

الفهم ، وتؤمن به أعمق الايمان ؛ وتعيش كل مبادئه وتعاليمه ؛ ومن ثم
ينعكس ايمانها فى « سلوك » اسلامى هو « أعمال » صالحة .

وهذا هو منهج القرآن الكريم .

فالقرآن مثلاً لا يعطي تعريفات نظرية للايمان والتقوى ، وإنما يصف
المؤمنين والمتقين بأخلاقهم وأعمالهم . وهذا المنهج العجلى عظيمياً وعملياً من
المنهج الفلسفى النظرى القائم على المفاهيم المجردة والنظريات التى تبدو
جميلة على الورق ، بينما تتحطم على أرض الواقع الانسانى .

والمثل الكامل للمبادئ والتعاليم الاسلامية ، أى النموذج الحى
لهدى الله ، هو شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ثم شخصيات المهتدين
بهديه من الصحابة والتابعين وورثة الأنبياء من العلماء فى كل العصور .
ولهذا ينبغى أن تستمد خصائص الشخصية المسلمة من القرآن والسنة
وسيرة ورثة الأنبياء ، كما ينبغى أن نعرض هذه الشخصيات على أبنائنا
وبنائنا على أنها الأمثلة الحية على كمال الاسلام وجماله .

٦ - ان الاتجاه الذى ظهر حديثاً بين المسلمين وهو الغلو فى
التكفير (١) ، يرجع فى بعض جوانبه الى أن الشخصية المسلمة بكل صفاتها
وخصائصها لم توضح توضيحاً كافياً بالمقارنة الى أنواع الشخصيات
الأخرى التى وردت فى القرآن ، وهى أنواع عديدة كما سنرى فى هذه
الدراية . ولذلك يكتفى كثير من المسلمين - لا سيما الشباب - بالحكم
بأن الانسان إما مؤمن أو كافر ولا ثالث لهما . وهذا التقسيم شديد العموم
يحتاج الى تفصيلات مستمدة من القرآن توضح أنواع الشخصيات التى
تندرج تحت هذا التقسيم والصفات التى تميز كل نوع . وسنجد كثيراً من
هذه التفصيلات اذا بحثنا فى القرآن ليس أولاً عن مفهوم الايمان والكفر ،
بل أولاً عن مفهوم الهدى والضلال .

فالحقيقة أن الايمان فى القرآن هو الايمان والعمل بالهدى عن علم به
والكفر هو رفض الهدى وعدم اتباعه بعد العلم به .

والهدى درجات ، والمهتدون أنواع : فمنهم مثلاً أصحاب اليمين ومنهم
المقربون .

وكذلك الضلال درجات والضالون أنواع ، ومنهم الضالون عن علم

(١) للدكتور يوسف القرضاوى رسالة فى هذا الموضوع عنونها ظاهرة الغلو فى
التفكير . . . وكتاب الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف .

بالهدى وهم الكافرون وتحتهم أنواع ، ومنهم الضالون عن جهل بالهدى
كله أو بعضه ، وهؤلاء أيضا أنواع . ولكل نوع صفات تميزه عن غيره .
وللهدى والضلال فى القرآن كذلك خصائص ومسببات ينبغى أن
تدرس وتستكشف ويستفاد من دراستها واستكشافها فى محاولة هداية
الجيل الضال وبناء الجيل المهتدى ، أى فى عملية اخراج الناس من الظلمات
الى النور .

وهذه الدراسة ما هى الا خطوة على هذا الطريق .

والمنهج الذى اتبعته هو منهج القرآن الكريم .

منهج التبين عن طريق الوصف والخصائص العامة للشخصيات ،
وضرب الأمثلة وإيراد النماذج لها ، واكتشاف الأسباب والمسببات للهدى
والضلال . ثم محاولة الاستفادة من هذا المنهج فى محاولة اخراج الناس
بكتاب الله من الظلمات الى النور .

فذلك أجدى عليهم وعلينا من اصدار فتاوى سريعة وأحكام عامة
بالإيمان والكفر .

وادعو اخوانى وأساتذتى من العلماء العاملين أن يشاركوا فى هذا
الجهد المتواضع ، وأن يصححوا خطأ ، ويتمموا نقصه . فكل مسلم يؤخذ
من كلامه ويترك الا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، والكمال لله وحده .

وادعو الله تبارك وتعالى أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم؛
وأن ينفع بها جميع المسلمين .

الفقيه ال دة

احمد عبد الحميد غراب

رمضان ١٤٠٤ هـ

يونيه ١٩٨٤ م

٢ - الهدى

خصائص الهدى (١)

(١) الهدى الحق هو هدى الله الذى جاء فى القرآن (وفسرته السنة) .

أى أن الهدى الحق للبشرية هو فى الاسلام وحده ، وليس فى أى دين أو نظام آخر :

« أن الدين عند الله الاسلام » (آل عمران ١٩/٣)

« ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله » (٧٣/٣)

« ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٨٥/٣) .

(٢) هدى الإسلام هو من الله وليس من البشر ؛ أى أنه ربانى المصدر

وهذا يضمن عدالة تعاليمه وشمولها للناس جميعاً ، أما تعاليم البشر فتصدر عن أهوائهم فتؤدى الى الظلم والفساد ، ولذلك يأمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أمراً مؤكداً مكرراً أن يحكم بين الناس بكتاب الله :

« فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق »
(المائدة ٤٨/٥) .

وكذلك يأمر نبيه داود عليه السلام :

« فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »
(ص ٢٦/٣٨)

(١) عرضنا هذه الخصائص بإيجاز ، ومن أراد التوسع فليراجع : المودودى : مبادئ الاسلام ، وسيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ، ويوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام .

(٣) ولأن كتاب الاسلام المشتمل على الهدى هو وحى من الله فهو حق لا ريب فيه ، ولا تحريف ولا تناقض ولا باطل . كما أنه منزلة عن ظنون البشر وأهوائهم :

« ذلك الكتاب لأريب فيه هدى للمتقين » (البقرة ٢/٢) .
« وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (فصلت ٤٠ - ٤١ - ٤٢) .
« وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » (النجم ٥٣/٣ - ٤) .
« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٥٣/٢٣)

(٤) الاسلام رشد

أى أن اتباع تعاليمه يقود الانسانية الى حياة راشدة حكيمة ، حياة طيبة تقوم على الفضيلة ، وتؤدي الى الخير والسعادة لبنى الإنسان جميعا . أما التعاليم الأخرى فتحقق خيرا جزئيا ، أو لا تحقق خيرا على الإطلاق ، أو تحقق الشر والشقاء :

« ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم » (الاسراء ١٧/٩) .
« انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشدا فآمنا به » (الجن ٧٢/١ - ٢)
« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (١٤/٧٢)

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء ٢١/١٠٧) .

(٥) والاسلام نور

ومن طبيعة النور أن يكون واضحا بنفسه ، وموضحا لغيره . أى أن الاسلام يبين للناس الحقائق ، ويهداهم على طريق الخير ، بصيرة يقبلها العقل وتتفق مع الفطرة . ومن ثم لا غموض فيه ولا خرافة ، ولا تكليف بما لا يطاق . ومن نتائج نشر هذا الهدى بين الناس أن يخرجهم من الظلمات الى النور ، ولهذا فنشره بين الناس وتبيينه لهم فرض على كل مسلم عالم عامل بالاسلام . ومتى تحقق التبيين انتفى الإكرام :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط
مستقيم » (المائدة ١٥/٥ - ١٦) .

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » (ابراهيم
١٤ / ١) .

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل
لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم ٣٠/٣٠) .

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون »
(النحل ١٦/٤٤) .

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (البقرة ٢/٢٥٦) .

(٦) والنور واحد

لأن مصدره وهو الحق تبارك وتعالى واحد ، ومن ثم فطريق النجاة
للإنسان طريق واحد ، لا طريق غيره ، وهو الاسلام . أما الطرق الأخرى
فتبتعد به عن النجاة وتورده موارد الهلكة ؛ وهي طرق كثيرة وملتوية .
ولذلك لا يرد لفظ « النور » في القرآن الا مفردا ؛ بينما لا ترد الظلمات
الا جمعا :

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور ٢٤/٤٠) .

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله »

(الأنعام ١٥٣/٦)

(٧) وكما أن الطريق واحد فهو طريق مستقيم

ولذلك عرف الاسلام بأنه دين الصراط المستقيم واتباع هذا الصراط
هو الهدى والانحراف عنه هو الضلال :

« من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (٣٩/٦)

« قل اننى هدى الى ربي الى صراط مستقيم دينا قيما » (١٦١/٦)

وكذلك كتاب الاسلام كتاب مستقيم لا عوج فيه :

« قرآنا عربيا غير ذى عوج » (الزمر ٣٩/٢٨)

« أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » (الكهف ١/١٨)
- (٢) •

(٨) الاسلام يهdy الانسان فى كل جوانب حياته الفردية والاجتماعية

فيقدم له ما يصلحه فى جسده وروحه وعقله ، ويربط بينه وبين أسرته ومجتمعه برباط المحبة والايتار والتعاون على البر والتقوى وكما يهديه فى العقيدة والعبادة والشريعة والسياسة والأخلاق والثقافة ، ويجمع له بين خيري الدنيا والآخرة • يقول الله تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »
(القصص ٧٧/٢٨) •

وليتهدى الانسان بهدى الاسلام فعليه أن يأخذه كلا متكاملًا ، وبهذا يحيا الحياة الطيبة التى تحفل بالأعمال الصالحة ، المقصود بها وجه الله وحده • ويقول الله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة »
(النحل ٩٧/١٦) •

٩ - يجمع الاسلام بين المبادئ الربانية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان وبين تشجيع الفكر البشرى على الابداع المتطور بتطور الزمان والمكان •

ولذلك يفتح الاسلام باب الاجتهاد ليس فى مجال التشريع فحسب بل وكذلك فى مجالات الفكر والعلوم ، والنظر والتطبيق • ومن ثم يأتى القرآن غالبا بالمبادئ العامة والكليات ويترك التفاصيل والجزئيات وطرائق التطبيق لاجتهاد الانسان طبقا لظروفه المتغيرة • كما يكرر القرآن أن من أهداف الوحي به اثاره تفكير الانسان ودعوته الى دراسة الظواهر الكونية والانسانية والاستفادة منها :

« فاعتبروا يا أولى الأبصار » (الحشر ٢/٥٩) •

« انظروا ماذا فى السموات والأرض » (يونس ١٠١/١٠)

« وسئخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » (الجاثية ١٣/٤٥)

١٠ - الاسلام يقوم على نفس الاسس العامة التى اشتملت عليها الأديان الموحى بها قبله •

الشخصية الانسانية - ١٧.

ومع هذا فهو مهيمن عليها أى أكمل منها جميعا ، لأنه يشتمل على
خير ما فيها ،

ويضيف اليها ما يصلح للبشرية فى كل زمان ومكان :

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا
عليه » (المائدة ٤٨/٥)

نعمة الهدى

عندما يتقبل الانسان الاسلام ويؤمن ويعمل به - فقد تقبل هدى الله
وآمن وعمل به .

وباتباعه هذا الهدى يخرج من الظلمات الى النور ، وينتقل من الشقاء
الى السعادة . وهذه أجل نعمة يسبغها الله على الانسان بعد خلقه وهى
نعمة هداة .

ومن الدلائل على جلال هذه النعمة أن ورد الدعاء بها فى اكثر السور
تكررا فى حياة المسلم وهى سورة الفاتحة ، وفيها يقرأ المسلم داعيا ربه :
« اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » (الفاتحة
٦/١ - ٧) .

وقد من الله على المؤمنين بهذه النعمة فقال تعالى :

« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام
دينا » (المائدة ٣/٥)

ونعمة الاهتداء تؤهل المهتدى لأكرم صحبة فى دار البقاء :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من
الله » (النساء ٦٩/٤ - ٧٠)

ولا فضل للانسان فى هذه النعمة ، بل الفضل لله وحده ، وذلك
لسببين :

١ - أن الانسان لم يأت بهذا الهدى من عند نفسه ، أو بجهد

الخاص ؛ بل اتاه الهدى من عند الله عن طريق الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

٢ - أن تقبل الانسان للهدى يرجع الى توفيق الله اياه : بأن شرح الله صدره للاسلام ؛ وكذلك خلقه على صورة مهياة (وليست مرغمة) بالفطرة والعقل والحس لقبول الهدى .

والى هاتين الحقيقتين تشير الايات الكريمة التالية :

« وقالوا « أى المؤمنون الصالحون : « الحمد لله الذى هدانا لهذا »
أى لهذا الدين الذى هدانا اتباعه الى الجنة

« وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (الأعراف ٤٣/٧) .

« قل ان ضللت فانما اضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربي انه سميع قريب » (سبأ ٣٤/٥٠)

« يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يهن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين » (الحجرات ١٧/٤٩)

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » (الأنعام ١٢٥/٦)

الجهد الانساني فى الاهتداء

هل معنى هذا أن الانسان مجرد آلة سلبية لا ارادة له ولا عمل سوى استقبال الهدى ؟ واذا كان كذلك فما المبرر الأخلاقى لمسئوليته ؟ أى لثوابه وعقابه ؟

الواقع أن الانسان ليس مجرد آلة ، وانما كائن كرمه الله فخلقته فى أحسن تقويم، وجعله عاقلا؛ أى قادرا على التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال كما جعله مريدا : أى قادرا على اختيار أحد الطريقين بعد التمييز بينهما .

ومن ثم فللانسان المؤمن جهد واضح فى اختيار الهدى .

وعملية الاختيار تستلزم منه جهودا كثيرة لا بد ان يقوم بها ليكون اختياره قائما على اقتناع واع لا على تقليد اعمى . ومن أهم هذه الجهود ما يلى :

١ - جهد المعرفة :

ويتمثل هذا الجهد فى الدراسة والتفكير والبحث والمقارنة . ويمكن ان نسميه جهد التحري للرشد ، اى جهد البحث عن الهدى الحق بين اركان المذاهب الباطلة والاديان المحرفة . ثم جهد المقارنة بين الاسلام وغيره من تلك المذاهب والاديان ، حتى يتبين الانسان بلا أدنى ريب أن الاسلام وحده هو الدين الحق ، وهو الهدى ، وهو الرشد ، وان كل ما عداه ضلال وباطل ، وكذب وزور ، وزخرف وغرور . والى هذا الجهد تشير الآية الكريمة :

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (البقره ١٤/٧٢) .

وهذا الجهد قد اصبح فى عصرنا الحاضر واجبا لا مفر منه على كل مسلم عامل بالاسلام داع اليه . وذلك لأن هذا العصر - اكثر من أى عصر مضى - أصبح يعج بالمذاهب الباطلة ، والاديان المنحرفة ، وبالمنظمات والمؤسسات والحكومات التى تناوى الاسلام وتخطط لهدمه . كما أصبح يعج بمن يزينون للناس الضلال ويزخرفون لهم الباطل ، ويشيعون بينهم الفساد والفحشاء ، بكل الوسائل ، ولا سيما وسائل التربية والاعلام .

٢ - جهد الارادة :

وهو عقد العزم على قبول الاسلام والالتزام به وحده منهجا لحياة الانسان ، ورفض كل ما عداه .

٣ - جهد العمل الصالح :

لا يكفى فى قبول الهدى مجرد تحرى الرشد وعقد العزم بل لابد من العمل الصالح والاعمال الصالحة فى الاسلام لا تكاد تحصى كثرة ، حتى ليتمكن ان يعرف الاسلام بأنه دين الايمان والعمل الصالح . وكلها تقتضى جهودا نفسية وعقلية وبدنية متواصلة تكاد تستغرق حياة المسلم .

ولعل أهم هذه الجهود وأعمها خيرا وبركة على الفرد والجماعة أن على المسلم أن يجعل حياته كلها نشاطا دائما دائما فى عمل الخير لوجه الله ، ومقاومة مستمرة لاهواء نفسه واهواء الناس . وهذا هو الجهاد بمعناه الشامل فى الاسلام : أى جهاد النفس والغير فى سبيل الله .

وجهد المؤمن لانجاز اعمال صالحة يسمى فى القرآن احيانا السعى ،

كقوله تعالى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه »
(الأنبياء ٢١ / ٩٤)

وهذا السعى كله حصيلة الإنسان من هذه الدنيا :

« وان ليسى للإنسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه
الجزاء الأوفى » . (النجم ٣٩ / ٥٣ - ٤١) .

ومن الواضح ان هذا السعى يقتضى اخلاقا فاضلة وصفات عالية
لانه يتطلب جهودا مضنية لا يطيقها الا الصابرون ، وتضحيات لا يبذلها
الا المؤمنون الصادقون :

ولنأخذ على سبيل المثال الانفاق :

فالانفاق - الى كونه عبادة - يعد من أهم الأعمال الصالحة فى الاسلام
بل هو أحد الخصائص التى تميز المؤمنين المتقين ؛ أى لا يتحقق ايمان وتقى
بدون انفاق .

والانفاق لا يعنى انفاق المال فحسب ؛ بل يشمل كل أنواع العطاء
الانسانى بقدر طاقة الانسان . ولذلك يتكرر فى القرآن وصف المؤمنين
المتقين بهذا التعبير الجميل الشامل :

« ومما رزقناهم ينفقون »

أى يعطون غيرهم من كل ما اعطيناهم من انواع النعم والطيبات ،
ويدخل فيها الاموال والمواهب والطاقات ، وكل ما يستطيع المؤمن ان
يقدمه لمجتمعه من معونة بلا مقابل الا ابتغاء وجه الله : فالغنى ينفق مالا ،
والعالم علما ، والطبيب علاجا ، وذو الجاه والسلطان من جاهه وسلطانه .
وهكذا .

والانفاق من المال بوجه خاص يقتضى مقاومة شديدة لهوى النفس ،
لأنها مطبوعة على الشح ، ولذلك وصف الأنصار فى القرآن بأنهم مفلحون
لأنهم قاوموا هذا الشح وقهروه ، فهم :

**« يحبون من هاجر اليهم ولا يجنون فى صدورهم حاجة مما اوتوا
ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك
هم المفلحون » (الحشر ٩ / ٥٩)**

ان انفاق المال ابتغاء مرضاة الله يعد دليلا على التزام المؤمن بهدى

الله ، ولذلك يكافئه الله بأجر من عنده ، ويكفيه مشاعر الخوف والحزن كما قال تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٢/٢٧٤) •

وكذلك الانفاق من العلم لا يقتصر على التعليم ، بل يشمل أنواعا كثيرة من الدعوة الى الله ، ونشر الحق والخير، أى نشر الاسلام بين الناس ، كما يشمل بوجه خاص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر • ومعلوم أن كل هذا يعرض العلماء والدعاة الى ألوان كثيرة من المحن والشدائد لا يطيقها الا القليلون • فهم يقاومون - بالاضافة الى أهواء أنفسهم وشهواتهم - أهواء الناس وشهواتهم ، ويجابهون أئمة الجور بالانكار عليهم بل انهم يهددون - بمجرد وجودهم الربانى ونشاطهم القرآنى - نظم الضلال والكفر بالانهيار ، لأنهم يكشفون للناس تعفنهم من الداخل وتآكلها بالشر والفساد • ولذلك فإن من قتل منهم يعد فى الاسلام شهيدا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى امام جائر فامر به ونهاه فقتله » (متفق عليه)

وبالاجمال فلاهتداء يقتضى من المؤمن بذل الجهد كما قال تعالى :

« والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت ٢٩/٦٩) •

وكما أن للانسان المؤمن جهدا واضحا فى اختيار الهدى فكذلك للانسان الكافر جهد واضح فى رفضه ، ولا سيما بعد أن تبين له الفرق الهائل بين الهدى والضلال •

وهذا الرفض بعد التبين هو ما يسميه القرآن ارتدادا ، وذلك فى وصفه لرفض كفار العرب رسالة الاسلام ، فقال تعالى :

« ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأمل لهم » (محمد ٤٧/٢٥) •

فقد بينت الآية أن ارتدادهم كان اختياريا وكان متعمدا ، لأنه كان عن علم وبعد تبين وتبين • والسبب الحقيقى فى رفضهم الهدى أنه يعارض أهواءهم :

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم » (القصص ٥٠/٢٨)

وكذلك رفضت ثمود الهدى بعد أن تبينته ثم فضلت عليه الضلال :
«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» (فصلت ١٧/٤١)
وهكذا الحال في كل من رفضوا هدى الله بعد أن تبين لهم :
« وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون »
(التوبة ١١٥/٩)

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » (النساء ١١٥/٤)

أهمية تبين الهدى

مما سبق يتضح لنا أهمية تبين الاسلام ؛ ضرورة تقديمه للناس
باسلوب مفهوم ومشوق ، يحببهم فيه ولا ينفرهم منه ، مع ابراز أنه
البديل الوحيد لحل مشاكلهم ، وأن اتباع هداة هو الطريق الاقوم لتحقيق
الحياة الطيبة .

وقد وردت آيات كثيرة تؤكد أهمية هذا التبين

فمن أجله أرسل الله الرسل ليبينوا للناس هدى الله ، فتتضح
مسئوليتهم في الاختيار ، ولا يكون لهم عذر في الضلال :

«رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»
(النساء ١٦٥/٤)

وقد كان من عدل الله ورحمته بالناس أن رتب المسؤولية على الاختيار
الواعى ، أى الاختيار القائم على المعرفة . فقضت حكمته تعالى ألا عقاب
الا بعد التبين :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٥/١٧)

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، لأن الاخلال به
اخلال بالرسالة نفسها ، وتضييع للحكمة منها :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة ٦٧/٥)

وكما أن التبیین مهمة الأنبياء ، فذلك هو مهمة العلماء لأنهم ورثة الأنبياء ، وعلى ذلك أخذ الله ميثاق علماء أهل الكتاب :

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران ١٨٧/٣) •

ولذلك لعن الله كل من كتم هداية وحال بين نوره وبين الناس :

« ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا » (البقرة ١٥٩/٢ - ١٦٠)

كما لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من اوتى علما فكتمه :

« من سئل عن علم فكتمه اجم يوم القيامة بلجام من نار » (أبو داود والترمذى) •

وتأكيد القرآن للتبيين يدلنا على حقيقتين :

١ - ان تبیین الاسلام للناس مسؤولية كبرى تقع على عاتق العلماء والدعاة لانهم ورثة الأنبياء • وواجب الحكومات « الاسلامية » أن تساعدتهم لا أن تقتلهم كما كان اليهود يقتلون أنبياءهم بغير حق •

٢ - أن تعاليم الاسلام اذا شرحت للناس ببساطة ووضوح يقبلها كل ذى عقل سليم، وفطرة مستقيمة، وأن الاسلام ينتشر بالاقناع لا بالاكراه ولذلك اقترن تحريم الاكراه بتحقيق التبیین فى قوله تعالى :

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (البقرة ٢٥٦/٢) •

٣ - شخصية المهتدى وهو المسلم الحق

يقول الله تعالى :

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (الحج ٢٢ / ٥٤) .

هذه الآية بينت الخطوات الطبيعية السليمة للاهتمام ، وهي ثلاث :

١ - العلم : أى العلم بكل جوانب الإسلام من عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق وسياسة وثقافة . . . وذلك يكون بدراسة هذه الجوانب كما وردت فى القرآن والسنة ، وكما تشرحها العلماء العاملون خلال العصور .

٢ - الايمان : دراسة الاسلام فى مصادره السابقة تؤدى بكل منصف الى التأكد من أنه الدين الحق ؛ وأنه من عند الله ، ومن ثم تؤدى الى الايمان به ، وكلما ازداد المسلم معرفة بالاسلام ازداد ايمانا به .

٣ - العمل : وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة باخبارات القلب ، أى خضوعه للحق وهو الاسلام . وهذا الخضوع لا يتحقق الا بالعمل بتعاليم الاسلام والاهتداء بهديه .

وهذه الخطوات الثلاث تشكل فى نفس الوقت العناصر الأساسية فى تكوين شخصية المسلم ، أى شخصية المهتدى . ومن ثم فهى متداخلة ومتكاملة ولا تغنى واحدة منها عن أخرى . فالمسلم يتعلم ويعلم ويؤمن ويعمل فى سلسلة مترابطة من النشاطات النفسية والمادية المتكاملة التى تؤدى اذا استمرت الى زيادة العلم والايمان والعمل وليست الزيادة مجرد زيادة « كمية » ، بل هى بالدرجة الأولى ارتقاء فى نوعية العلم والايمان والعمل ، فيصبح العلم يقينا ، ويزداد القلب بالايمان اطمئنانا ، ويزداد العمل صلاحا .

وقد وردت الآيات التى تدل على أن الله يزيد عباده المخلصين فى هذه الثلاثة ومنها قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم :

« وقل رب زدنى علما » (طه ١١٤/٢٠) •

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم أولئك الذين « اذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » (الأنفال ٢/٨)

وبأنهم كذلك يزدادون ايمانا بتحدى الكافرين لهم ، واحاطة المحن والشدائد بهم :

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا » (آل عمران ١٧٣/٣)

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » (الأحزاب ٢٢/٣٣) •

وقوله تعالى عن المهتدين :

« ويزيد الله الذين آهتدوا هدى » (مريم ٧٦/١٩) •

وعن المؤمنين والعلماء :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١/٥٨) •

« واذا قال ابراهيم رب ارنى كيف تحى الموتى قال او لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى » (البقرة ٢٦٠/٢) •

لم يكن ابراهيم عليه السلام يطلب أصل الايمان ، فهذا لا شك كان موجودا عنده ، ولكنه كان يطلب ترقيا فى نوعية الايمان ، وهو اطمئنان القلب •

وفيما يلى نبين هذه العناصر الأساسية الثلاثة (العلم والايمان والعمل) وآثارها فى شخصية المسلم •

العلم

لا بد أن نعترف بالحقيقة المروعة ، وهي أن معظم أتباع دين العلم يتخبطون في ظلمات الجهل . وهو جهل فاضح ومركب .

أما أنه فاضح فلأنه جهل بدينهم الذي يدعوههم إلى خير الدنيا والآخرة ومن ثم يدعوههم إلى المعرفة المتكاملة بعلوم الدنيا والآخرة . وهم يجهلون كليهما .

الاسلام دين البر . والبر ليس صورا ومظاهرا ، وإنما هو إيمان وأخلاق فاضلة وأعمال صالحة :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . (البقرة ١٧٧) .

ومعظم المسلمين يعلمون ويعشقون ظاهرا من الحياة الدنيا : ثم يعكسون هذا الظاهر على الاسلام ، فيرونه ويمارسونه على أنه دين الصور والاشكال والمظاهر والطقوس .

ولذلك ترى كثيرا منهم (حتى بعض من يسمون أنفسهم « علماء ») يهتمون بالفاظ العقيدة لا بصدقها فى قلب المؤمن ، ولا بآثارها فى نفسه وحياته . وبمظاهر العبادة لا بروحها وكيفية بنائها الشخصية المسلمة والأمة المسلمة . ويعلمون كثيرا من « التفاصيل الفقهية » بحرفية قاتلة تكاد تزهد روح الشريعة وتطمس نورها .

وهذه نفس الظاهرة التى كانت سائدة بين الفقهاء فى عصر الغزالي ، أى منذ عشرة قرون . فقد لاحظ الغزالي على فقهاء عصره أنهم شغلوا أنفسهم وشغلوا الناس بالجزئيات الفقهية والتفريعات الخلافية ، حتى « لو سئل فقيه عن معنى . . الاخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الربا - لتوقف فيه ، مع أنه فرض عين فى أهمله

هلاكه فى الآخرة . ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شئ منها » (١)

وحنى المعرفة بالقرآن لا نكاد تتجاوز عند معظم المسلمين حناجرهم فلا نرى أخلاق القرآن منمثلة فى كثير من دارسيه وقارئيه ، بل ولا تجد عندهم معرفة عميقة بآياته ودلالاتها . ويكفى أن نشير الى أن اليهود ذكروا فى القرآن وأشير الى تاريخهم وصفاتهم وتحريفهم للتوراة فى كثير من الآيات ومع ذلك فكم من « علماء » المسلمين يعرفون بدقة تاريخ اليهود وتحريفهم لكلمات الله وفلسفة الصهيونية العالمية ومخططاتها للقضاء على الإسلام ؟

وجهل المسلمين بدينهم هو كذلك جهل مركب ، لأنه ليس لدى الكثيرين منهم الشجاعة الكافية للاعتراف بهذا الجهل ومحاولة تداركه

خصائص المعرفة

المعرفة بالإسلام ليس معناه احتشوا ذهن المسلم بمعلومات كثيرة عن الإسلام . فالعلم القليل النافع خير من الكثير المتمثل فى معلومات مكسدة فى الذهن لا يستفاد منها فى تغيير الواقع النفسى والاجتماعى والسياسى للمسلمين ، أو معلومات مشوشة مضطربة لا تعين على توضيح مشكلة فضلاً عن حلها ، أو أقوال مكررة مملولة منقولة عن مقلدين لمقلدين ، لا أصالة فيها ولا اجتهاد ولا مواجهة لمشاكل العصر وتحدياته ، كما هى حال معظم الانتاج الفكرى والفقهى خلال القرنين الماضيين .

المعرفة بالإسلام لها خصائص تميزها عن غيرها من أنواع المعرفة ومن أهمها :

● أنها شاملة : فهى لا تقتصر على جانب واحد أو عدة جوانب من الإسلام بل تشمل دراسة كل جوانبه من عقيدة وعبادة وتشريع وأخلاق وسياسة واجتماع وثقافة . . . وهذه الدراسة لا تقتصر على الظاهر الإنسانى بل تشمل أيضاً الباطن . (وعلم الباطن عند الصوفية العاقلين بالكتاب والسنة يشمل الأخلاق والتربية وعلم النفس ، أى يشمل كل حياتنا الروحية) .

(١) احياء علوم الدين ٣٦/١ - ٣٧ .

● **انها متكاملة :** فالجوانب السابقة ليست أجزاء منفصلة بل مترابطة في « كل » واحد . وهذا الترابط المتكامل يمثل وحدة المعرفة والسلوك في الاسلام . فالعقيدة ترتبط بكل جوانب الاسلام وكذلك العبادة، والشريعة، والأخلاق... وهكذا . وكلها تنعكس في سلوك المسلم وأعماله .

● **انها تغييرية :** فهي ليست مجرد نظريات خيالية ومفاهيم فلسفية ، بل تعاليم ومناهج تهدف الى تغيير نفس الانسان من الداخل ، ومن ثم الى تغيير بيئته الخارجية . ومن هنا تحمل دائما ذلك العنصر الثوري الذي يقصد الى التغيير ويخطط له وينفذه .

فنحن لا ندرس شيئا عن الاسلام لمجرد معرفته بل لتطبيقه علينا وعلى غيرنا . وهذا يعنى تغيير الواقع الفاسد في النفس الانسانية وفي المجتمع الانساني فالمسلم يدرس العقيدة في الاسلام ليصحح ايمانه ويثبتها أولا ثم ليصحح العقائد الباطلة من حوله ، وكذلك يدرس الأخلاق الاسلامية ليتحلى بها ثم ليحلها محل الأخلاق الجاهلية السائدة ، ويدرس الشريعة ليعمل بها ثم ليحلها محل القانون الوضعي ، ويدرس السياسة ليحكم نفسه وأسرته وجماعته ثم أمته حكما اسلاميا ... وهكذا .

● **انها تستوعب كل طاقات المسلم :** فتقتضيه بذل جهود شتى متعاونة :

فتقتضى جهدا عقليا في البحث والدراسة والاستيعاب .

● **وتقتضى أصالة فكرية ولا سيما في تدبر آيات القرآن وظواهر الكون .**

ومن الواضح أن تدبر القرآن لا يقتصر على مجرد فهم آياته ، بل يتجاوز ذلك الى تأمل معانيها والحشوع لها والعمل بها والاستنباط منها (اذا كان المسلم مجتهدا) .

وكذلك تدبر ظواهر الكون لا يقتصر على مجرد ملاحظتها ، بل يقتضى دراستها ومعرفة قوانين خلقها وتسخيرها ، ووجه الاستدلال بها على صفات خالقها .

والعلماء المسلمون يجعلون هذه الأصالة الفكرية صفة من أهم الصفات التي ينبغى أن يتحلى بها العالم المسلم .

فالعامة يؤكد أهمية الاجتهاد ورفض التقليد ، ويشترط في

العالم المسلم أن يكون « مستنكفا عن اتباع أشياخه بحسن الظن » وأن يتجنب التقليد لمن لا يشهد له بالعصمة (١) .

والغزالي يرى أن العالم المسلم ينبغي « أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » (٢) .

● كما تقتضى هذه المعرفة جهودا بدنية ومادية باتباع تعاليم الاسلام في النظافة والطهارة والطعام والشراب والنوم والكسب الحلال والاقامة والترحال .

● أنها تربط المسلم بالله وبالأخلاق الربانية : فتقتضى أن يتحلى الدارس للاسلام بأخلاق الاسلام وعلى رأس هذه الأخلاق تقوى الله : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (البقرة ٢/٢٨٢) .

ومن ثمرات هذه المعرفة خشية الله :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (غافر ٢٨/٣٥) .

ولذلك لا يجوز أن يتلقى المسلم هذه المعرفة الا من مصدرى الاسلام وهما القرآن والسنة ، أو من علماء مسلمين يوثق بدينهم وتقواهم .

ويشترط حجة الاسلام أن يتحلى العالم المسلم بأخلاق من أهمها .

الزهد في الدنيا ، والتواضع ، والعدل (لأنه كالقاضي) ، وأن يعمل بعلمه ويتجنب الجدل ، وحياة الترف ، ومخالطة الحكام (٣) .

ويقول ابن سيرين : « ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم »

ويترتب على هذا أنه لا يجوز للمسلم أن يتلقى دينه من مصدر أو شخص ينتمى لاحدى الطوائف التالية :

١ - المستشرقون .

٢ - المبشرون .

(١) أبو الحسن العامري : الاعلام بمنائب الاسلام تحقيق أحمد محمد الحميد شراب ص ٢٢ .

(٢) الأحياء : ١٣٣/١ .

(٣) احياء علوم الدين ٩٨/١ وما يليها .

٣ - الشيوعيون .

٤ - العلمانيون .

٥ - المسلمون الذين يدينون بالولاء الثقافي لاحدى هذه الطوائف .
لأن هؤلاء جميعا اما يهود أو نصارى أو ملاحدة (أى ضالون كافرون)
أو منافقون موالون لهم فهم منهم . يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم
بعد ايمانكم كافرين » (آل عمران ١٠٠/٣) .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا
من عند أنفسهم » (البقرة ١٠٩/٢) .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى
الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من
الله من ولى ولا نصير » (البقرة ١٢٠/٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء
بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم » (المائدة ٥١/٥) .

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم
من العلم » (النجم ٢٩/٥٣ - ٣٠) .

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين » (النساء ١٣٨/٤ - ١٣٩) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ،
وانكم اما أن تصدقوا بباطل ، واما أن تكذبوا بحق . وانه والله لو كان
موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى » « رواه الحافظ أبو يعلى عن
حماد عن الشعبي عن جابر رضى الله عنهم » (١) .

(١) راجع بتوسع : سيد قطب : معالم فى الطريق ص ١٢٦ ومايلها .

العلوم الاسلامية

العلوم التي ينبغي أن يدرسها المسلم لمعرفة دينه والعمل به ينبغي أن تشمل تلك الخصائص التي ذكرناها آنفا ، وبذلك تساهم في بناء الشخصية المسلمة والأمة المسلمة .

وأهم هذه العلوم وأكثرها ضرورة للمسلم هي العلوم التالية :

- ١ - القرآن وعلومه .
- ٢ - السنة وعلومها .
- ٣ - العقيدة .
- ٤ - الفقه وأصوله .
- ٥ - الاخلاق الاسلامية .
- ٦ - السياسة الاسلامية .
- ٧ - السيرة والتاريخ الاسلامي .
- ٨ - اللغة العربية وعلومها .
- ٩ - المؤامرات على الاسلام ولا سيما مؤامرات التبشير والاستشراق .
- ١٠ - فقه الدعوة والعمل الاسلامي .

وأود أن أضيف الى هذه العلوم علما آخر لم يتحدث عنه العلماء المسلمون كثيرا (فيما وصل اليينا من تراثهم) ، وانما أشاروا اليه اشارات عابرة خلال موضوعات أخرى *

والواقع أن هذا العلم لا يستغنى عن العلوم الاسلامية الأخرى ، ولكنه يجمعها جميعا ، ويعتبر أهمها في تكوين شخصية المسلم ، وفي أحداث التغيير النفسي بها ، ومن ثم في أحداث التغيير الشامل في كيان الأمة الاسلامية بأسرها .

وذلك العلم هو تدبر القرآن .

تدبر القرآن

ينص القرآن الكريم على أن من أهداف نزوله أن يتدبره الناس .
يقول الله تعالى :

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » (ص ٣٨/٢٩) .

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالقرآن بأنهم :

« يتلونّه حق تلاوته » (البقرة ١٢١/٢) .

والتدبر حق من حقوق التلاوة .

وقد استنكر الله تعالى على الكفار غفلتهم عن تدبر كتابه ، فقال

سبحانه :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٤٧/٢٤) .

كما وصف الكافرين بأن من سماتهم الاعراض عن التفكير في

آيات الله في القرآن وفي الكون معا . قال تعالى :

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين »

(الأنعام ٤/٦) .

وقال تعالى :

« وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها

معرضون » (يوسف ١٢/١٠٥) .

وصلة المسلم بالقرآن ضرورية ، ليس لمجرد دراسته دراسة نظرية ،

ولا لمجرد « تنمية » ثقافته ، بل لتربية شخصيته وامتدادها بما يحييها

ويزكيها ويزيدها هدى .

وحيث تتربى شخصية المسلم على القرآن فان خيرات هذه التربية

لا تقتصر على صاحبها بل تنعكس على غيره هدى وحياة ونورا .

القرآن يحيى النفوس :

والقرآن يحيى النفوس لأنه كتاب الهدى، والنفوس الضالة فى حالة نشبه الموت اذ ان فطرتها الخيرة وكل طاقاتها البناء تكون معطلة ، بينما تكون أهواؤها وشهوانها مطلقة العنان ، تعمل عملها الشيطاني الحيواني الذى يهبط بالانسان من احسن تفويم الى اسفل سافلين وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه حياة النفوس فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »
(الأنفال ٢٤/٨) .

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام ١٢٢/٦) .
كما وصف الكفار بأنهم عطلوا طاقاتهم الحسية والعقلية ولم يستعملوها فى احياء أنفسهم بالهدى ، فتعطلت استجابتهم له :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »
(الأعراف ١٧٩/٧) .

« فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين »
وما أنت بهساد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (الروم ٥٢/٣٠ - ٥٣) .

ومن أهم وجوه الإعجاز التى لم يبحثها العلماء المسلمون كثيرا أن القرآن كالمطر . فكما ان المطر - باذن الله - يحيى الأرض بعد موتها ، فالقرآن - باذن الله - يحيى النفوس بعد موتها . وكما أن المطر لا يحيى كل أرض ، لأن الأرض الخبيثة التربة لا تقبل الماء ولا تمسكه ، فكذلك القرآن لا يحيى كل نفس ، لأن النفس الكافرة الخبيثة ، لا تقبل الهدى ولا تتأثر به . وذق تصوير لهذه الحقيقة تواتره صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا : فكانت منها بقعة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله عز وجل به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وكان منها قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، (متفق عليه) .

فالمثل الأول للمسلم الحق يحيا ويحيى غيره بالهدى ، والثاني للمسلم الذي ينفع غيره بالهدى ولا ينتفع هو به ، والثالث للكافر المحروم من الانتفاع والنفع ، ومن الحياة والاحياء .

شروط التدبير :

لاحداث هذا الأثر ، وهو أن تحيا النفس وتحيا غيرها بالهدى ، لا يكفي أن تكون صلة المسلم بالقرآن أية صلة كانت ، بل لا بد أن تكون هذه الصلة صلة تدبر . ولتكون كذلك يشترط في التدبير شروط من أهمها :

١ - أن يكون مسلما عاملا بالاسلام : لقوله تعالى :

« ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (فاطر ٢٩/٣٥) .

فهذه الآية تقرير بوضوح أن الذين يتلون كتاب الله ليسوا مجرد « قراء » لا يتجاوز القرآن حناجرهم ، بل هم مسلمون صادقون يتلون القرآن ويعملون به ، فيقيمون الصلاة ولا يقتصرون على الزكاة بل يتجاوزونها الى الانفاق سرا وعلنا مما رزقهم الله . أما المسلم الذي يتلو القرآن ولا يعمل به ، فهو ممن ينطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه » .

٢ - أن يكون ملما بالعلوم التي أشرنا اليها آنفا : فهذه العلوم كلها تعين على تدبر القرآن ، كما تستعين به .

٣ - أن نكون صلته بالقرآن مباشرة : أى أن يفهم القرآن بدون واسطة ، فان وجود الوسائط بين المسلم والقرآن (كالترجمة وبيان المعنى) يضعف نور القرآن في القلب ، وأثره في النفس . وكلما كثرت هذه الوسائط ضعف نوره وأثره لأنها بعدد بالمسلم عن النبع الأصلي ومن مصدر النور . وليس معنى هذا ألا يستعين المسلم بالترجمة والتفسير مثلا ، بل يجب عليه أن يسعين بكل ما يعينه على الفهم ، بشرط أن يعتبر ذلك كله وسائل الى غاية أعظم ، وأن كل الوسائل والوسائط مهما بلغت قيمتها فلن يقوم أى منها مقام النص القرآنى ولن يؤثر أثره . وقد قال الله تعالى :

« وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »
(الأعراف ٧/٢٠٤) .

ولا تتحقق الحكمة من السماع والانصات - وهي العمل بالقرآن -
الا بتحقيق فهمه . والأمر بالسماع والانصات معا يدل على أنه لا يكفي
مجرد الفهم عن أى طريق ، بل عن طريق الصلة المباشرة بالقرآن وهي
سماعه والانصات له ، او تلاوته بنفسه .

٤ - أن تكون صلته بالقرآن مستمرة : أى أن يداوم المسلم كل يوم
على تلاوة بعض آيات القرآن وتدبر معانيها ويتأكد أنه يعمل بها ،
ومهما كانت هذه الآيات قليلة فالقليل المتصل خير من الكثير المنقطع
ولقوله تعالى :

« فاقروا ما تيسر منه » (المزمل ٧٣/٢٠) .

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » (الاسراء ١٧/١٠٦) .

وقد كان الصحابة لا يستكثرون من القرآن فى الجلسة الواحدة لأن
الصحابى كان يحس أنه انما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على
عاتقه . فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى
حديث ابن مسعود رضى الله عنه (١) .

٥ - أن يكون تدبره مصحوبا بخشوع القلب : وخشوع القلب هو
تواضعه لله وخشيعته منه وخضوعه لأمره ونهييه . واذا تواضع القلب
واذعن تواضع الانسان واذعن بكل جوارحه لتعاليم القرآن وعمل بها .
وهذا الشرط - وهو التدبر الخاشع للقرآن - هو أهم الشروط .
فبدونه لا يكون للقرآن أثر فى نفس المسلم أو فى حياته وحياة الآخرين .

وهذا ما يحدث الآن للمسلمين : فكثير منهم يتلون القرآن أو
يسمعونه يتلى بأعذب الأصوات ، ويأدق الشروط « اللفظية » للتلاوة ،
ومع ذلك لا ترى له أثرا فى نفوسهم وفى سلوكهم وذلك لافتقار
التدبر الخاشع حتى عند بعض قرائه وعلمائه لأن هؤلاء فى الحقيقة يتاجرون
بقراءته وتفسيره ، يشترون بآيات الله ثمنا قليلا .

وهذا نقيض الخشوع كما قال الله تعالى :

« خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا » (آل عمران ٣/١٩٩) .

(١) سيد قطب : معالم فى الطريق ص ١٥ .

وقد وردت آيات كثيرة تحت المؤمنين على الخشوع للقرآن ، وتبني
أن التدبر الخاشع لآياته يحيى القلوب كما يحيى الله الأرض بعد موتها .
يقول الله تعالى :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخضع قلوبهم لذكر الله وما نزل من
الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست
قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلّموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد
بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (الحديد ٥٧/١٦ - ١٧) .

وفى هاتين الآيتين تحذير للمؤمنين ألا يحدث لهم ما حدث لليهود
والنصارى من قبل ، حيث اتسعت الهوة - بمرور الزمن - بينهم وبين
وحى الله فى صورته الاصلية ، فحرفوه .

« ونسوا حظا مما ذكروا به » (المائدة ١٣/٥) .

« فنبأوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا » (آل عمران ١٨٧/٣) .

وذلك لأنه لم يعد له أثر فى قلوبهم ، فتحولت الى دأرب فاسقة .
ومن ثم تحولت حياتهم الى حياة فاسقة .

وتوالى هاتين الآيتين يدل بوضوح على أن هناك صلة وبنية بين احياء
القرآن للقلوب و احياء الأرض بعد موتها ، بشرط أن يتحقق الخشوع
فى كليهما (أى فى القلوب والأرض) . وقد ورد وصف الأرض بالخشوع
فى سياق احيائها بماء المطر فى قوله تعالى :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

وربت ان الذى احيها لمحي الموتى » (فصاحت ٣٩/٤١) .

وهذا لأن الخشوع - كما رأينا فى تعريفه - نوع من التواضع يهيم
الانسان لقبول نعمة الله بالهدى ، وشكره عليها عن طريق الاهتداء بها ،
فنظهر آثارها عليه فى أخلاق جميلة وأعمال صالحة . وكذلك يهيم الأرض
لقبول نعمة الله بالمطر . والأرض « تنسك » الله على هذه النعمة بأن
« تسلم » له أى تخضع لقوانينه فى الخلق والأمر كما قال تعالى :

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها » (آل عمران

٨٣/٣) .

فتظهر آثار هذه النعمة عليها فى نباتات جميلة وحدائق ذات بهجة :

« فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحى الموتى » (الروم ٣٠/٥٠) .

وبدون هذا التواضع لا يكون الانسان مهياً لقبول الهدى . فالكافر فى أعماق نفسه يدرك أن الهدى حق ، ولكنه لكبريائه يرفضه كما قال تعالى :

« وجحدوا بها واستيقنوا أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل ٢٧/١٤) .

وهذا يفسر لنا لماذا تختلف ردود الفعل عند سماع القرآن باختلاف نفسيات السامعين . فذو الفطرة الخيرة يسمعه فيتدبره فيتأثر به ويخشع له ، أما ذو الفطرة الفاسدة فيحاول ألا يسمعه ، واذا سمعه لا يتدبره ، فلا يتأثر به ولا يخشع له . ولهذا كان الكفار يقولون :

« لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (فصلت ٢٦/٤١) .

ولما سمع عمر بن الخطاب القرآن آمن وقال : « ما أحسن هذا الكلام واكرمه ! » وفى رواية أخرى أنه قال : « فلما سمعت القرآن رق قلبى فبكيت ودخلنى الاسلام » .

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن أعجبته بلاغته وقال : ان له حلاوة وان عليه لطلاوة وانه يعلو ولا يعلى . ولكنه بعد تفكير طويل تغلب كبرياؤه على إعجابه فلم يؤمن ووصف القرآن بأنه : سحر يؤثر ، وبأنه ليس وحيا ، بل من كلام البشر ، كما قال تعالى عنه :

« انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر » (المدثر ١٨/٧٤ - ٢٥) .

وفى القرآن آيات أخرى تبين أن الاهتداء الحقيقى بكتاب الله لا يتحقق الا بالتدبر الخاشع لآياته .

ففى سورة الاسراء (١٧) آيات تؤكد أن القرآن معجزة :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٨٨) .

ولكنه ليس معجزة حسية كتلك المعجزات التي كان الكفار يطالون بها الرسول صلى الله عليه وسلم : كأن يفجر لهم ينبوعا ، أو تكون له جنة ، أو بيت من زخرف ، أو يسقط عليهم السماء ، أو يأنى بالله والملائكة ، أو يرقى فى السماء ويعود بكتاب يقرؤه (٩٠ - ٩٣) .

ونجد فى نفس السورة آيات تصف القرآن بصفات تشير الى الوجوه الحفيفية لاعجازه ، ومن هذه الوجوه :

أنه « يهدى للتى هى أقوم » (٩)

أنه « يحتوى على الحكمة » (٣٩)

وأنه متنوع الأساليب والأمثال للتعبير عن الحق والدلالة على الهدى (٤١ ، ٨٩)

وأنه « شفاء ورحمة للمؤمنين » (٨٢)

لكنه « لا يزيد الظالمين الا خسارا » (٨٢)

وفى السورة نفسها ندرك لماذا لم يهتد الكافرون بهدى القرآن : وذلك لأن بين القرآن وبينهم حاجزا نفسيا يحول بينهم وبين أن يفهموه ، فضلا عن أن يتدبروه فيعملوا به ويهتدوا بهديه :

« واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » (٤٥ - ٤٦)

وتنتهى السورة بالتأكيد على أن القرآن حق ، وأنه نزل مفرقا ليقراء الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس على مهل ، وذلك ليتدبروه فيحدث فى أنفسهم أثره من خلال ذلك المنسوع الذى يحدثه فى قلوب « الذين أوتوا للعلم » . حتى أنهم كانوا :

« اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا » ، « ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » (١٠٧ ، ١٠٩) .

وكل هذه الآيات - فى سياقها - تؤكد ما قلناه من أن الاهتداء بكتاب الله لا يتحقق الا بالتدبر الخاشع لآياته .

مراحل التدبر :

(بالاضافة الى حلقات العلوم والذكر المعروفة اقترح على اخواني العاملين انشاء حلقة لا لمجرد تفسير القرآن بل لتدبره وما ورد هنا عن مراحل التدبر ليس قواعد جامدة بل اقتراحات يمكن أن تعدل أو تغير طمحا لاجتهاد أصحاب الحلقة) .

- ١ - تبدأ الحلقة بتلاوة آيات قليلة يتلوها قارئ يعطى التلاوة حقها .
- ٢ - الاستماع والانصات اليها في خشوع وترك آثارها تصل الى القلب .

الآثر النفسى للآيات لا يقتصر على معانيها ، بل هو المحصل الكلى الناتج من مجموع عناصر عديدة منها :

- (أ) طريقة التلاوة وصوت القارئ .
 - (ب) جرس الألفاظ والتراكيب وأواخر الآيات .
 - (ج) نظم الكلمات .
 - (د) الصور .
 - (هـ) المعانى .
- وهذه العناصر تثير استجابات مختلفة باختلاف شخصيات السامعين .
وأعمقهم استجابة هو أكثرهم خشوعا وأرهفهم حسا :

« انما يستجيب الدين يسمعون » (الأنعام ٣٦/٦) .

- ٣ - التأكد من فهم معانيها الأساسية .
- ٤ - التأمل فى هذه المعانى الأساسية ومحاولة استنباط معان أخرى منها ، لأن القرآن يعبر عن معان كثيرة فى ألفاظ قليلة ، وكلمات الله لا تنفذ معانيها :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف ١٨/١٠٩) .

- ٥ - الاشارة الى الآيات الأخرى المتصلة بالموضوع (كما سنرى فى النموذج) .

٦ - التأكد من تطبيق ما ينبغي تطبيقه منها في حياة أفراد الحلقة وأسرهم .

وإذا كان هناك خلل في التطبيق فينبغي البحث عن أسبابه ، وعن أنجح الوسائل لتلافيه .

٧ - البحث عن أنجح الوسائل للتطبيق التدريجي في حياة الأمة .

نموذج يمثل وحدة المعرفة والسلوك

سورة الطلاق ١٢/٦٥ آية

- يجمع هذه السورة بين التشريع والعقيدة والعبادة والاحلاق والتاريخ والعلوم الكونية . وبذلك تمثل وحدة المعرفة ونكاملها وارباطها الوثيق بالسلوك الانساني .

- فهي تعالج أساسا مشكلة الطلاق ، وأنه إذا كان لا بد منه فينبغي أن تراعى فيه قواعد وتوجيهات وشروط معينة (فصلتها كتب الفقه) (١) .

- ولكن السورة ليست مجرد تشريع صيغ في لائحة قانونية عن الأحوال الشخصية (انظر الى هذه المصطلحات الحديثة كم هي جافة وخالية من كل عنصر انساني ، ومع ذلك تدعى « تقنين » العلاقات الانسانية في حياة الأسرة) بل هي نموذج للسلوك الاسلامي المتكامل في العلاقات الأسرية .

- فالله يأمر المسلم أن يعامل المرأة التي اربط بها برابط المؤدة والرحمة (أى الزواج) ويوشك فراقها - أن يعاملها معاملة اسلامية . فلا يخرجها من بيتها (أى أنه ليس بيته بل بيتها حتى تنتهى العلاقة الزوجية) وأن يتأنى قبل أن يقرر نهائيا قطع تلك العلاقة بها :

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » (١) .

فاذا قرر معاشرتها بالمعروف أو فراقها بالمعروف . وقد ورد الحث على أن يكون الفراق بما هو فوق المعروف ، أى الاحسان :

« الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (البقرة ٢/٢٢٩) .

(١) راجع سيد سابق . فقه السنة ٢/٢٤١ وما بعدها

وهذه لانسك معاملة نبيلة ترتفع بالمسلم فوق الاستجابة للامعان الهابطة المتغيرة ولذلك لم يجعل الكره مبررا للطلاق في القرآن . لأن انفعالات الرجل قد تعميه عن فضائل المرأة ومزاياها :

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء ١٩/٤) .

— وفد ورد الأمر بتقوى الله والحت عليها خمس مرات في السورة ، مما يؤكد التشديد على وجوب معاملة المرأة المطلقة معاملة كريمة ، وأن أى هضم لحقوقها في الاسكان والانفاق والمعاشرة — يعتبر نعديا لحدود الله ، وظلما للنفس ، وموجبا لغضب الله وعقابه . كما أن تقوى الله تؤدى في الدنيا الى تيسير الحياة والرزق المتقوى ، وفي الآخرة عفران ذنبه وزيادة أجره .

— من أجل تحقيق هذه المعاملة الكريمة تخاطب السورة وجدان المسلم وتستثير عقيدته وإيمانه بالله واليوم الآخر :

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢) .

وهذا يدلنا على أمرين في غاية الأهمية .

١ — أن تطبيق شريعة الله تطبيقا فعلا لا يتحقق الا في مجتمع مؤمن ، قد ربى أفراداه على أخلاق القرآن .

٢ — أن الدراسة المثلى للفقه لا تكون بدراسته منفصلا عن الجوانب الأخرى للإسلام ، بل على أنه مرتبط بها ، ولا سيما بالعقيدة والأخلاق .

— من المبادئ الخالدة التي قررتها السورة (وقررت في سور أخرى) مبدأ معاملة كل إنسان حسب طاقته :

« لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٧) .

ولهذا المبدأ تطبيقات نافعة لا تكاد تحصى ، ليس في التشريع فحسب ، بل وكذلك في التربية وفي العمل الاسلامي . فمثلا اذا تعودت قيادة العمل الاسلامي أن تراعى الاختلافات الفردية فتطالب كل فرد بما يستطيع ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، وأن تشعره بتقديرها لكل انجاز مهما كان متواضعا (ما دام قد بذل وسعه) — لتحقق باذن الله نتائج جماعية تشبه المعجزات .

– وفى السورة تفسير للتاريخ فيه عبرة لكل مؤمن : أن من قوانين الله التى تحكم المجتمعات الانسانية أن أى مجتمع يتحدى أوامر الله ورسوله للناس بالتزام العدل سيؤدى به قانون الأسباب والمسببات الى أن يواجه حتما العاقبة الوخيمة لظلمه ، ولا سيما ظلمه للضعفاء وتلك العاقبة هى الانهيار والخسران :

« وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسوله فجاسبنها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خيرا »
(٨ – ٩) .

– وتنتهى السورة بالتأكيد على قدرة الله وحكمته وعلمه ، وأن الأرض التى نعيش عليها ليست هى الأرض الوحيدة ، فهناك أرضون أخرى (١٢) .

وهذه الإشارة يرى العلم الحديث أنها تتفق مع مفهوم تعدد الكواكب التى تشبه أرضنا على الأقل فى بعض الجوانب . وأن هذا المفهوم وان لم يتثبت بأدلة حسيمة قاطعة فهو معقول تماما (١) .

إذا أضفنا الى هذه السورة الآيات الأخرى فى القرآن من موضوع الأسرة والعلاقات الزوجية وتربية الأطفال – فسنجد أنفسنا أمام موضوع متكامل ، ويتضح لنا باذن الله منهج القرآن فى علاجه ، وتوجيهاته الربانية فى اقامة العلاقات البشرية ، وامكانيات التطبيق فى الحياة المعاصرة .

من مزايا هذا المنهج :

١ – ان استقلال العلوم الاسلامية بعضها عن بعض يفيد تطورها المتخصصة ، ولكن التخصص الضيق يقضى على وحدة المعرفة الاسلامية وتكاملها ، ويؤدى الى ظهور أنواع من النقص فى الشخصية المسلمة منها : ضيق الأفق ؛ والعقلية الحرفية ؛ وغموض الرؤية الكاملة لشمول الاسلام، بل قد يؤدى الى تعصب كل متخصص لتخصصه بسبب جهله بالعلوم الأخرى .

واسننا ندعو الى الغاء التخصص ، ولكننا ندعو فى تربية الشباب

(١) راجع موريس بوكاي : دراسته الكتب المقدسة ص ١٦٥ ، ١٧٢ .

المسلم الى اقامة العلاقات الطبيعية بين العلوم الاسلامية وتقديمها اليه في صورة تجمع بين مزايا التخصص والتكامل معا .

ومنهج التدبر للقرآن يحقق هذه المزايا :

فيعلمنا أن ندرس الفقه مثلا في نطاق العقيدة والعبادة والأخلاق والمجتمع أي كجزء من كل وهو الاسلام .

ويعلمنا كذلك أن نعنى بالموضوع الواحد ، ونتتبعه في القرآن كله ، ثم في السنة ، ثم في تراث ورثة الأنبياء . ثم البحث عن امكانيات تطبيقه في حياة الفرد والجماعة .

٢ - سيؤدي استخدام هذا المنهج الى مراجعة بعض العلوم الاسلامية والعربية وكتابتها من جديد بروح قرآنية .

ومن هذه العلوم مثلا :

علم التوحيد :

وهو علم العقيدة الاسلامية ، فينبغي :

- أن نخلصه من آثار الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ولا سيما من روح الجدل ومن استعمال المصطلحات غير القرآنية وغير الاسلامية (كمصطلحات الذات والجوهر والعرض) .

- أن نخلصه من قضية الفصل المصطنع بين الوحي والعقل . فالوحي القرآني يخاطب الانسان كوحدة متكاملة تشمل الفطرة والعقل والخيال والشعور والحواس ، كما تشمل فرديته واجتماعيته ، وجسده وروحه ، وظاهره وباطنه ، وحياته وموته .

- أن ندرس العقيدة الخالصة كما وردت في القرآن والسنة وكما عاشها المؤمنون .

- أن ندرس العقيدة مع العبادات والأخلاق . فصفات المؤمنين في القرآن تشمل هذه النواحي الثلاثة .

التاريخ الاسلامى :

ينبغى أن يعاد فهمه ونعاد كتابته على ضوء المبادئ القرآنية فى تفسير التاريخ الانسانى بوجه عام ، وباتاريخ الانبياء بوجه خاص ، وعوامل التغيير التى نؤدى الى ظهور خير أمة واهيأرها .

علم الاجتماع :

استمد أبو الريحان البيرونى وابن خلدون وغيرهما من علماء المسلمين الذين كتبوا فى هذا العلم كثيرا من أفكارهم من القرآن الكريم .
ويبدو أن تطور هذا العلم قد توقف أو ضعف فى العالم الاسلامى المعاصر ولاحياء هذا العلم ينبغى الرجوع الى القرآن مرة أخرى .

الأدب العربى :

فى الأدب العربى كثير من نصوص الشعر والنثر تدور حول اللغو والفحش ، كشعر الغزل الفاحش ، والهجاء المقذع ، والمدح الكاذب ، والتكسب بالشعر ، ومقامات التصنع والاستجداء يجب أن نترك دراسة هذه الموضوعات - اذا لم يكن من ذلك بد - لقلة متخصصة تهتم بتطور الظواهر الادبية وعلاقتها بالظواهر الاجتماعية والأخلاقية . وينبغى أن نركز على الأدب الاسلامى والشعر الاسلامى فى كل العصور ، ولا سيما فى العصر الحاضر . فهناك مثلا شعر اسلامى لشعراء الحركة الاسلامية الحديثة يجب أن يجمع ويدرس ويستفاد منه فى بناء الجيل المسلم .

٣ - وأخيرا لعل أهم ما يحققه هذا المنهج فى تدبر القرآن هو تربية الشخصية المسلمة تربية قرآنية متكاملة .

الايمان

الايمان بالله الواحد :

الايمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى كما وردت فى القرآن .
والسنة بلا تشبيه أو تعطيل أو تأويل - له آثار عميقة فى نفسية المؤمن ،
ولا سيما عقيدة التوحيد .

فهذه العقيدة تجعل للمسلم هدفا رئيسيا واحدا طوال حياته ، وهو
التحقق بالعبودية لله وحده ، فيوجه كل طاقاته ونشاطاته نحو ذلك
الهدف : فيكون ولاؤه لله ، وخوفه من الله ، ورجاؤه فى الله ، وكل
أخلاقه وأعماله ظاهرها وباطنها ، مقصودا بها وجه الله وحده ؛ وكل
جوانب حياته موجهة بهدى الله وحده :

« قل انى صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له
(الانعام ٦/١٦٢ - ١٦٣) »

وهذه العقيدة تمكن المؤمن من مواجهة الحياة بروح العبادة ، وجهد
العمل الصالح ، كما تمكنه من التغلب على مصاعبها - مهما تعقدت - بروح
الأمل فى الله ، والاستعانة به ، والثقة بعدله وحكمته ، والرضى
بقضائه . وبذلك تحقق له نوعا فريدا من سكينه النفس وسلامها الداخلى
لا يتحقق للوثنى المشرك الذى يكفر بالوحدانية ، ويؤمن بتعدد الآلهة .

وعقيدة التعدد تتنافى مع وحدة الكون التى تتمثل فى ظواهر
متكاملة تخضع لقوانين ثابتة . فعقيدة التعدد تفسر هذه الوحدة تفسيراً
خاطئاً يفرض أن تعدد المخلوقات يعنى تعدد الخالقين ، وهذا وهم باطل ،
وظن كاذب ، لأن المخلوقات مهما تعددت وتنوعت فبينها علاقات متشابهة ؛
كما أنها تخضع لقوانين واحدة وسنن مطردة :

« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من
فطور » (الملك ٣/٦٧) .

وكذلك تتنافى عقيدة التعدد مع الشخصية الانسانية ؛ وتكامل
نشاطاتها العقلية والروحية والبدنية ؛ وخضوعها لقوانين ثابتة تربطها
بنظام الكون وتجعلها جزءا لا يتجزأ من عالم الغيب والشهادة ؛ فروح
الانسان من عالم الغيب وجسمه من عالم المادة ؛ وهما متفاعلان فى وحدة
منكاملة وهى شخصية الانسان .

والآلهة المتعددة تكون محسوسة أو غير محسوسة .

(أ) فالآلهة المحسوسة تكون فى شكل تماثيل وصور تمثل عبادة
البشر أو الحيوانات أو مظاهر الطبيعة كما فى الديانات الوثنية أو الديانات
السماوية التى تأثرت بالوثنية كالنصرانية (١) . فقد أصبحت هذه
الديانة بعد حريتها ديانة وسية فى معظم جوانبها :

فعقيدة التثليث عقيدة وثنية مأخوذة من الوثنيات القديمة التى
كانت سائدة فى أفريقيا وآسيا ولا سيما فى مصر والهند .

والتماثيل والصور والصلبان والطقوس والاساطير والاحتفالات بعيد
الميلاد (٢) - كل هذه مظاهر وثنية ترجع فى أصولها الى الوثنيات
القديمة .

وقد ادعى رجال الدين المسيحى لانفسهم قبل الاسلام وفى القرون
الوسطى من القداسة والعصمة وحق التشريع ما جعل نفوذهم يفوق نفوذ
الكهنة والسدنة فى معابد الوثنيات القديمة . وكان أتباعهم يطيعونهم
طاعة مطلقة كطاعة الأرباب ، وكان يشبههم فى ذلك رجال الدين اليهودى ،
ولذلك يقول الله تعالى عن اليهود والنصارى :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم
وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون »
(التوبة ٣١/٩) .

(١) عن تائر النصرانية بالوثنية راجع أحمد شلى . المسيحية ص ١٣ وأبو الحسن
الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٣ .
(٢) عن الاصل الوثنى لعيد الميلاد راجع The Plain Truth About Christmas
وهو كتاب أصدرته كنيسة أمريكية عالمية : The Worldwide Church of God :
واعترفت فيه بالأصل الوثنى لعيد الميلاد ، وقد صدرت له عدة طبعات سنة ١٩٥٢ ،
١٩٧٢ ، ١٩٧٤ .

وعقيدة التوحيد تحرر المسلم من كل هذه الضلالات ، كما تحرره من سلطة الكهنة ورجال الدين ، حتى ولو كانت سلطة وساطة لا سلطة ربوبية ، لأن علاقة العبد بربه فى الاسلام علاقة مباشرة لا تحتاج الى الوُسْطاء :

« **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** »
(البقرة ١٨٦/٢) .

ولا شك أن استبعاد سلطة الكهنة ورجال الدين فى الاسلام قد أزاح عبثاً ثقيلاً عن فكر المسلم وضميره وارادته ، وجعل توجيهه الوحيد يأتى من مصدر ربانى مباشر يبين ولا يكره ؛ ويهدى ولا يرغم ؛ ويكتفى غالباً بالكلمات الخالدة والمبادئ العامة ؛ ويترك للمسلم حرية فكرية ووجدانية واسعة لحل مشاكله المتغيرة ؛ ويشجعه على التفكير والنظر فى الكون ؛ والتدبر لآيات القرآن .

(ب) وقد تكون هذه الآلهة غير محسوسة ، كما هو الحال فى الوثنية المعاصرة . فقد أصبح كثير من الناس (وكثير من المسلمين) ينعقدون غير الله أو مع الله آلهة أخرى ، وأهمها المال والسلطة والشهرة والقومية والوطن و « ترابه المقدس » ! وعلى رأس هذه الآلهة جميعاً اله الهوى .

واتباع الهوى يمثل استعباد الانسان المعاصر لشهواته ، ومحاولته اشباعها بكل الوسائل ، ومن أجل ذلك يتعبد للآلهة الأخرى ، ولا سيما المال والسلطة والشهرة (اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى) ولمن بأيديهم الأشياء ، فيضحي بالكثير من وقته وجهده فى سبيل ارضائهم ، بل كثيراً ما يضحي كذلك بضميره وشرفه وكرامته . **ولا عجب فالهوى يعمى** ويصم :

« **أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ »** (الجاثية ٢٣/٤٥) .

وبينما نسمو عقيدة التوحيد بالانسان ، وتربأ به أن يتخذ الهها غير خالقه ورازقه وهاديه ومن بيده حياته وموته ومصيره - تهبط به عقيدة التعدد الى مستوى العبودية ، ليس لمثلها فحسب ، بل لأقل منه ، كالحبوانات والحمادات ، فيعبدوها وهو الذى كرمه الله بالانبيائية .

« ولقد كرمنا بنى آدم » (الاسراء ١٧ / ٧٠) •

ويسجد لها وهو الذى أمر الله الملائكة أن تسجد له • فأى ضعة
وأى هوان ! وهذا النوع من العبودية لغير الله (أى الاوثان حسية أو
معنوية) يقتل المواهب المبدعة والطاقات البناءة فى الانسان ، لأنه يصبح
كالعبد المملوك •

وقد صرح القرآن بأن العبد المملوك عاجز عن الاسهام الحقيقى -
ماديا كان أم معنويا - فى بناء الأمة المسلمة •

فقد عقد القرآن مقارنة بين شخصين : أحدهما عبد عاجز فقير ،
لا يؤدى دورا نافعا فى خدمة المجتمع عن طريق العمل والكسب والانفاق •
والآخر حر قادر ، يعمل ويكسب وينفق ، ولا سيما فى وجوه البر •

كما عقد مقارنة أخرى بين شخصين : أحدهما عبد أو كالعبد :
ابكم عالة على سيده ، عاجز لا يستطيع أن يقوم بأى عمل نافع • والآخر
رجل (حر) يستخدم مواهبه وطاقاته فى تبصير الناس بالهدى ،
ويأمرهم - بوجه خاص - بالتزام العدل •

وهو الى ذلك يحيا حياة مستقيمة موجهة بهدى الله :

« ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا
حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستتوون الحمد لله بل أكثرهم لا
يعلمون • وضرب الله مثلا رجلين أحدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كل
على مولاه اينما يوجهه لا يات بخير • هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل
وهو على صراط مستقيم » (النحل ١٦ / ٧٥ - ٧٦) •

ومن المقارنة نفهم بوضوح لماذا شرع الاسلام وسائل كثيرة لتحرير
الرقيق (١) لأن الرق فى حقيقته صورة من صور العبودية لغير الله ،
ومن ثم فهو يتنافى مع عقيدة التوحيد ، كما أنه يمثل عقبة كأداء تواجه
الشخصية الانسانية ، وتحول دون رقيها عن طريق اهتدائها الكامل بهدى
الله • وقد صرح القرآن بأن الرق كالفقر « عقبة » يجب على المسلم لا أن
يتخطاها فحسب بل وأن « يقتحمها » :

(١) عن الاسلام والرق راجع محمد قطب : شبهات حول الاسلام ص ٣٧ - ٦٣ •

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » (البلد ٩٠/١١)

— (١٣) •

والأعمال الصالحة العظيمة التي يتطلب الاسلام من المسلم القيام بها — كالانفاق والجهاد والدعوة الى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — تنطلب من عزة النفس وكبر الهمة مالا يوجد عند العبد الا اذا تحرر من عبوديته • وكيف يستطيع أن يحرر غيره من عبادة العباد وهو عبد لهم ؟!

والعبد المملوك نفسيا وعقليا للآخرين أو لهواه هو كالعبد الرقيق « لا يفدر على شيء » • فلا يستطيع أن يفكر تفكيراً بناءً ، ولا أن ينجز انجازاً كبيراً ، لأنه ليس حراً ، لا من قيود الآخرين ولا من قيود نفسه ، فشخصيته في الحقيقة مستعبدة من داخلها وخارجها •

وعقيدة التوحيد تحرر المسلم من الرق الداخلي والخارجي ، وتجعل عبوديته لله وحده • وهذه العبودية لله تسمو بشخصية الانسان ، توثق صلته بربه فيهتدى بهداه ، ويعتز بعزته ، ومن ثم تتحرر كل طاقاته وقدراته وتنطلق للتفكير المثمر ، والعمل الصالح ، والنشاط البناء ، بدون عائق من أوثان أو كهان • وبذلك يؤدي دوره كاملاً كخليفة لله في أرضه •

ومع أن عقيدة التوحيد تحرر كل طاقات الانسان وتطلقها للعمل — فهي لا تذهب به الى حد الغرور ، بل توقفه عند حده ، وتعرفه قدر نفسه • فلا يتجاوز دور الانسان المخلوق الفاني المحدود المعرفة والارادة والحياة — الى دور الاله الخالق الرازق الباقي العالم لكل شيء والقادر على كل شيء • فالمسلم يؤمن بأن الله واحد في ذاته ، وفي أفعاله ، وفي كماله :

« ليس كمثله شيء » (الشورى ١١/٤٢) •

ومن ثم يشعر دائماً بحاجته الى ربه ، وغنى ربه عنه وعن الناس جميعاً • ولذلك يستعين دائماً بالله ، ويستهديه ، ليظل دائماً على الصراط المستقيم •

أما غرور الانسان الكافر ، ولا سيما المشرك ، فيخيل اليه أنه ليس بحاجة الى الله ، ولذلك لا يستعينه ولا يستهديه •

وهذا الغرور يكون إحدى السمات البارزة في « الحضارة » الغربية الحديثة ، وهو نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها :

١ - الانجازات العلمية والتكنولوجية لهذه الحضارة .

٢ - الانجاه العلماني السائد في كل نواحيها : وهو انجاه يفصل بين الدين والحياة بوجه عام ، وبين الدين والتربية بوجه خاص ، وينظر بعين الريبة الى كل ما هو « ديني » ويرى أنه لتحقيق التقدم الانساني يجب على الانسان أن يعتمد على عقله وجهده وخبرته وحدها ، لا على الوحي ولا على الدين . ومن المعروف أن هذا الاتجاه يعود في نشأته الى ظروف الصراع بين الكنيسة والعلم في القرون الوسطى ، وان التقدم العلمي في الغرب - بسبب هذا الصراع - قد سلك طريقه بمعزل عن الايمان بوجود الله فضلا عن توحيده .

٣ - تعدد الآلهة في هذه « الحضارة » : فهي في كثير من جوانبها « حضارة » مادية وثنية مشتركة ، فهي مزيج من سلالة الوثنيات اليونانية والرومانية والنصرانية . والفرق أن الآلهة المعاصرة قد اتخذت أسماء جديدة : اله الاقتصاد ، واله العلم والتكنولوجيا ، واله القومية ، واله الشهوات الجنسية .

ويتوهم الانسان الغربي أنه ما دام كشف بعض اسرار العلم ، وقهر بعض مظاهر الطبيعة ، واستنصر بعض الشعوب الضعيفة واستغل ثرواتها - فلا بد أن يكون قد بلغ من القوة والتفوق درجة تؤهله أن يكون سيد نفسه ، ورب مصيره ، والمتحكم في مجرى حياته (بالتعاون مع أبناء جنسه غالبا على الاثم والعدوان) بدون حاجة الى الايمان بالله ، أو الاستعانة بقدرته وهده .

وهو ينسب تقدمه المادي - بوجه خاص - الى علمه وعبقريته كما نسب قارون ماله فقال :

« انما أوتيته على علم عندي » (القصص ٧٨/٢٨) .

وهذا الغرور نوع من الشرك ، لأنه نوع من عبادة البشر ، اذ هو تأليه الانسان لنفسه ، واتخاذ الهه هواه .

وقد بدأ بعض المفكرين الغربيين أنفسهم (١) ، ولا سيما الذين أسلموا منهم (٢) يدركون مدى ما فى هذا التفكير المغرور من خطر ، ومدى ما يؤدى اليه من خطر على التقدم الانسانى حتى فى الغرب نفسه ، لأنه يقطع كل صلة للانسان بالله ويقتل اسمى ما فى الانسان وهو روحه التى هى من الله ، ويحصر تقدمه فى التقدم المادى الذى يمسح انسانيته ، ويهبط به الى درك الحيوان أو الآلة .

وقد أدى هذا « التقدم » المادى بالفعل الى تخلف روحى وأخلاقي واضح ولا سيما فى الغرب نفسه . ويتمثل هذا التخلف فى طغيان الاهتمام بالاقتصاد والطعام والجنس ، وفى ظواهر التوتر الاجتماعى والنفسى : كانتشار الجريمة والبطالة والاضرابات والمخدرات وأمراض النفس والعقل . كما يتمثل فى أن الاستعمار الغربى ما زال ماضيا فى الاسترقاق الاجتماعى للشعوب ، واستغلال ثرواتها المادية والبشرية ويتبع فى القرن العشرين أساليب جديدة لكنها لا تقل وحشية - ان لم تزد - عن أساليب القرن التاسع عشر .

والحضارة الغربية باصرارها على سلوك هذا الطريق « للتقدم » لا شك أنها سائرة الى الهلاك . ولا نجاة لها الا بالرجوع الى الله واعتناق الاسلام .

ومما سبق يتضح أن عقيدة التوحيد تقيم التوازن فى الشخصية المسالمة وهذا التوازن يقيها الغرور والانحطاط معا ، ويصلها بخالقها ، ويهديها - بهذه الصلة - الى أن تحيا الحياة الطيبة التى تقوم على الايمان والعمل الصالح :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة »
(النحل ٩٧/١٦)

(١) منهم العالم الكسيس كاريل فى كتابه الانسان ذلك المجهول والماسوف ديورانت فى كتابه . مناهج الفلسفة والمزج ونسى فى كتابه . دراسة التاريخ ، والأديب مكسلى فى كتابه الفلسفة المائدة .

(٢) راجع مثلا . مريم حمبل : الحضارة الغربية قديما ونسبها فى جزء من :
Western Civilization Condemned By Itself, 2 Vols.
ومحمد أسد . الاسلام على مفترق الطرق . Islam At The Cross Roads ورجاء جارودى :
الاسلام وأزمة الغرب محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٣/١/٥ .

وتمتد هذه الحياة الطيبة على طريق ذى مراحل متكاملة تمتد من دار
الابتداء الى دار الجزاء :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه
أحدا » (الكهف ١٨/١١٠) .

الايمان بالغيب :

الغيب هو كل ما غيب عن حس الانسان علمه : كذات الله ، وماهية
الروح ، وموعد الساعة ، وطبيعة الملائكة والجن ، وأحوال القيامة
والحساب والجزاء وما يحدث فى المستقبل .

والايمان بالغيب يكون عنصرا أساسيا فى شخصية المسلم ، ويميزها
عن شخصية الكافر . فالكافر لا يؤمن بالغيب ، أى ينكر وجوده ،
فلا يؤمن الا بما يقع تحت الحس ، او ما يدركه العقل عن طريق الملاحظة
(والتجربة) لما يقع تحت الحس .

والايمان بالغيب نتائج تنعكس على فكر المسلم ووجدانه وأخلاقه .
فالموقف الفكرى للمسلم من عالم الغيب هو موقف يتسم بالامانة
الفكرية ؛ فهو يسلم من أول الأمر (لأنه مؤمن بدين الفطرة) بحقيقة بدأ
الحلم الحديث يسلم لها ؛ وهى قصور العقل الانسانى عن ادراك أقرب
الاشياء اليه وهو الانسان نفسه ! فالانسان يجهل الكثير عن نفسه ؛
كما يجهل الكثير عن الكون الذى يعيش فيه .

ويكفى أن نشير الى أن عالما كبيرا فى الغرب هو د . الكسيس كاريل
فى كتابه المشهور : الانسان ذلك المجهول (١) . قد اعترف اعترافا
مفصلا وأميننا بعمجز العلماء عن فهم الانسان فقال :

اننا لا نفهم الانسان ككل ، اننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء
مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من
مركب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ، وواقع الأمر أن جهلنا
مطبق . فأغلب الاسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون
الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا
الباطنة ما زالت غير معروفة . ويورد المؤلف أسئلة هامة كثيرة لا يجد

(١) الترجمة العربية لشفيق اسعد فريد ص ١٦ - ١٨ .

العلماء لها جوابا • وينتهى الى القول بأن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ما زال غير كاف ، وان معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية فى الغالب •

وهذا مصداق قوله تعالى عن الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء ٨٥/١٧) •

والايمان بالغيب مرتبط كذلك ارتباطا وثيقا بوجودان المسلم • فهو يؤمن بأنه لا يعيش هذه الحياة - سراءها وضراءها - وحده ، وانما يعيشها قريب الصلة بالله :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » (ق ١٦/٥٠) •

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » (البقرة ١٨٦/٢) •

« ان رحمة الله قريب من المحسنين » (الاعراف ٥٦/٧) •

« ان ربي قريب مجيب » (هود ٦١/١١) •

وكذلك يعيشها فى ضجبة ملائكة كرام بررة ، يشجعونه على عمل الخير ، ويستغفرون له اذا عمل شرا ، ويشبتونه فى الجهاد ، ويواسونه فى الضراء ، ويشيعون فى حياته السلام وفى نفسه السكينة ، وعندما يحين أجله يعينونه كذلك على أن يستقبل الموت فى سلام وسكينة :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور » (الأحزاب ٤٣/٣٣) •

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » (غافر ٧/٤٠) •

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » (الأنفال ١٢/٨) •

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا » (فصلت ٣٠/٤١) •

« الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة
بما كنتم تعملون » (النحل ٣٢/١٦) •

ولا شك أن الايمان بهذه الصحبة الكريمة فى الحياة والموت من شأنه أن يثبت قلب المؤمن ، ويزيل عنه الوحشة والقلق ، ويشيع فيه الطمأنينة والرضى •

وكل هذه المشاعر حميفية لا يتمنع بها الكافر ، لأن تصوره للحياة والموت ليس فيه هذا العنصر الغيبى الروحانى ، ومن ثم لا يسمح له إلا أن يعيش فى عالم ضيق محدود ، محصور فى وجوده هو ووجود العالم الخارجى حوله • وكلا الوجودين مادى ، متغير ، مهنز • فاذا أقام الانسان كل كيانه النفسى والعقلى على هذا الوجود المادى المهتز فقد أقامه على شفا جرف هار •

ولعل هذا الضيق فى التصور والوجود ، وحصرهما فى النطاق المادى المحدود ، هو بعض مظاهر « المعيشة الضنك » التى يعيشها الضال الكافر بهدى الله كما أنه بعض مظاهر « العمى الروحى » الذى يتخبط فيه فى الدنيا كما قال تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة
أعمى » (طه ١٢٤/٢٠) •

« فانها لا تهمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »
(الحج ٤٦/٢٢) •

وكما أن الايمان بالملائكة يجعل العالم الذى يعيش فيه المؤمن عالما رحبا من حيث « الوسط » الذى يتحرك فيه - فالايان بالآخرة يجعل عالمه رحبا من حيث « الزمن » •

فحياة المؤمن ليست هى اليوم فقط ، وانما تمتد الى غد (أى لا تنتهى بنهاية هذه الحياة وانما تمتد الى حياة أخرى) • وعلى كل نفس مؤمنة أن تملأ حياتها بالأعمال الصالحة وبهذه الأعمال تمهد لمستقبلها فى عالم آخر اكمل وأسعد ، أى تقدم لغدها :

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » (الحشر ١٨/٥٩) •

فالموت بالنسبة للمؤمن ليس هو النهاية - كما يتصور الكافر - وانما هو بدء رحلة نحو حياة أفضل وأبقى •

والإيمان بالغيب يمثل كذلك ذروة الشعور الإسلامى بالمسئولية الخلقية . فالمسلم يفعل الخير ويجتنب الشر لدوافع ترجع الى تربيته على الهدى ، ومن أهم هذه الدوافع دافعان يرجعان الى إيمانه بالغيب ، وهما :

١ - تقوى الله :

فمن أهم صفات المتقين أنهم يخشون الله بالغيب :

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين الدين يخشون ربهم بالغيب » (الأنبياء ٢١/٤٨-٤٩) .

« هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » (ق ٣٢/٥٠ - ٣٣) .

٢ - الايمان بالعواقب :

المسلم يؤمن بأن هناك عواقب حتمية لكل أعمال الانسان ، مهما صغرت :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .
(الزلزلة ٧/٩٩ - ٨) .

وكثير من هذه العواقب يكون بعيد الوقوع ، أو مغيبا عن علم الانسان فى الدنيا والآخرة .

ومع ذلك فهو يفعل الخير ويجتنب الشر ايمانا منه بحتمية عواقبهما .
وهما كانت بعيدة أو مغيبة .

فهو مثلا يفعل الخير ، وان لم ير له نتائج قريبة أو نافعة نفعا عاجلا لشخصه . بل كثيرا ما يفعل الخير وهو يعلم أنه لن يجز عليه الا الأضرار والمحن فى العاجلة ، وذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكذلك هو يتجنب الشر ، كالظلم مثلا ، لأنه يؤمن بأن له عواقب حتمية وخيمة - مهما كانت بعيدة أو مغيبة - ليس على المظلوم وحده بل وعليه هو وعلى المجتمع كله .

وعلى العكس من ذلك يكون سلوك الكافر .

فالكافر لا يفعل الخير الا اذا جر عليه نفعا عاجلا في هذه الدنيا .
ولا يتجنب الشر الا اذا جلب عليه ضررا محققا في هذه الدنيا . فمثلا
الحاكم ذو العقلية الكافرة (وقد يكون مسلم الاسم والمظهر كمعظم حكامنا
اليوم) يمعن في ارتكاب الظلم طوال مدة حكمه . ولا يرتدع عنه الا اذا
رأى ثورة المظلومين تهدد كرسيه بالسقوط وحياته بالزوال . بل غالباً
ما لا يتعظ بالتهديد حتى يدركه الفرق فيقول آمنت !

وبسبب هذين الدافعين يتحرر ضمير المسلم وسلوكه من ضغط
الواقع المادى ولا سيما من ضغط الرغبة والرغبة من الناس .

فهو يؤدي عمله على خير وجه ، ولا يحتاج في ذلك الى رقيب أو
حسيب ، لأنه يحسن عمله ابتغاء مرضاة الله ، ورجاء في عواقب الاحسان
في الدنيا والآخرة :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن ٦٠/٥٥) .

أما الذى لا يخشى الله بالغيب ، ولا يهتم بالعواقب المغيبة ، فلا
يحمل على احسان عمله الا الرغبة أو الرهبة من الناس ، ولا يستنبط ممن
بأيديهم السلطة أو المال . وذلك شأن الكافرين بوجه عام ، والمنافق
بوجه خاص .

ولعله لهذا السبب وصف الله النساء المؤمنات بأنهن لا يحتجن الى
تأديب أزواجهن :

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » (النساء
٣٤/٤) .

فالمؤمنة الصالحة القانتة تحفظ غيب زوجها . وتصون عرضها
وطهارتها في كل وقت وليس فقط أثناء « الحضور » المادى لشخص
زوجها .

أما النسي تحتاج الى التأديب فهي التي لم يتعمق في نفسها هذا النوع
من التربية ، وهي التي يخشى نشوزها .

وبالاجمال فهناك قيم اسلامية نبيلة يلتزم بها المسلم ابنما كان
وحيثما حل ، حضر الناس أو غابوا ، لأنه يؤدي أعماله - منفردا أو
مجتمعا - بروح الاحسان . والاحسان كما قال رسول الله صلى الله عليه

وبسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (من حديث رواه مسلم) .

« المؤمنون عقليتهم غيبية » :

هكذا يصفهم الماديون والعلمانيون والملاحدة . ولا يقصدون بهذا الوصف الا التندر والسخرية :

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا »
(البقرة ٢/٢١٢) .

والذى لا يدركه الماديون هو أن الايمان بعالم الغيب فى الاسلام ليس تصورا غامضا لعالم مجهول ، ولا تهويما فى عالم الخيال ، ولا مخدرا لضمير الانسان ، وانما هو فى الحقيقة - كما رأينا - ادراك عميق لحكمة الله فى وجود الكون والانسان ، كما أنه النزام كامل بهدى الله فى الفكر والوجدان والسلوك .

العمل

الايمان أخلاق وأعمال

- الايمان يثمر فى المؤمن أخلاقا حسنة وأعمالا صالحة .
- وادعاء الايمان بلا أخلاق ولا أعمال هو نفاق محض . والنفاق كفر .
- فالانسان الذى يدعى الاسلام بلسانه ، ولا يتخلق بأخلاق القرآن ، ولا يعمل أعمال الاسلام ، هو منافق ، والمنافق كافر .
- والمنافق يعامل فى الدنيا - بحسب ظاهره - معاملة المسلم ، ولكنه فى الآخرة يعاقب عقاب الكافر :

« ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » (النساء ١٤٠/٤)

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (البقرة ٨/٢)

والخلق الحسن صفة نفسية ثابتة ، يكتسبها المسلم بالتربية على هدى الله ، ويترتب عليها سلوك ارادى فاضل ، أى عمل صالح أو أعمال صالحة .

فللخلق الحسن فى الاسلام خصائص من أهمها :

- ١ - أنه يستمد من هدى الله أى من القرآن والسنة .
- ٢ - أنه يستقر فى الشعور والوجدان (أى فى القلب) .
- ٣ - أنه مقبول لدى العقل وملائم للفطرة .
- ٤ - أنه مستمر : بمعنى أن يزاوله الانسان المسلم طوال أو معظم حياته الراشدة . فيشترط ليوصف المسلم به أن يكون حسن الخلق

لا يوما أو شهرا أو فترة قليلة أو فترات متقطعة من حياته ، بل يستقيم عليه طوال حياته أو معظمها .

٥ - أنه ينمر أعمالا ايجابية صالحة تظهر في سلوك المسلم ونشاطه اليومي .

٦ - يكون هذا السلوك اراديا ، أى اختياريا بدون اضطرار ولا إكراه .

٧ - هناك تفاعل أو تأثير متبادل بين الخلق والعمل : فالخلق الحسن يشمر العمل الصالح ويزيده صلاحا ، والعمل الصالح يزيد الخلق الحسن حسنا وثباتا .

والأخلاق الفرآنية المترتبة على الايمان كثيرة ، ويجمعها خلق التقوى .

فالتقوى أم الأخلاق ، لأنها تجمع معظم الأخلاق الاسلامية (١) .
وهى أول وأهم ما يترتب على الايمان .

ومن ثم سنقتصر على بيان صفات المؤمنين المتقين فى القرآن .
وهجوع هذه الصفات - بالاضافة الى العلم - هو ما يكون شخصية المؤمن .
المتقى أى شخصية المهتدى بالله ، وهو المسلم الحق .

المؤمنون المتقون

بعد أن بينا الايمان ، يكفى لبيان أهمية التقوى أن الله جعلها جزءا لا يتجزأ من رسالة الرسل الى كل أمة :

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله »
(النساء ١٣١/٤) .

بل جعلها هدفا من أهداف خلق الانسان :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ٢١/٢) .

وجعلها كذلك مقياس التفاضل بين الناس :

=====

(١) عن التقوى راجع بتوسع سعيد حوى : جند الله ثقافة وأخلافا ص ٢٥٦ .

• « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣/٤٩) •

• ووصفها بأنها خير زاد وخير لباس للانسان :

• « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » (البقرة ١٩٧/٢) •

• « ولباس التقوى ذلك خير » (الأعراف ٢٦/٧) •

ولا يتقبل الله عملا الا بها :

• « انما يتقبل الله من المتقين » (المائدة ٢٧/٥) •

وكل بناء أقيم على غير التقوى فهو منهار :

• « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم » (التوبة ١٠٩/٩) •

والرزق الحسن والفرج بعد الشدة مرتبطان بها :

• « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (الطلاق ٢/٦٥ - ٣) •

وبها يكون نصر الله وتأييده :

• « واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » (البقرة ١٩٤/٢) •

• « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (النحل ١٢٨/١٦) •

• « والعاقبة للمتقين » (الأعراف ١٢٨/٧) •

وبها يتحقق حب الله للعبد :

• « فان الله يحب المتقين » (آل عمران ٧٦/٣) •

والآن نورد الآيات التي وردت فيها أهم صفات المؤمنين المتقين وهي آيات كبيرة ، نكتفي منها بالآيات الكريمة التالية :

١ - « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم
وأولئك هم المفلحون « (البقرة ٢/٢ - ٥) •

٢ - « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر
من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه
ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب
وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى
البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون «
(البقرة ١٧٧/٢) •

٣ - « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض
أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين
عن الناس والله يحب المحسنين • والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم
يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون • أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات
تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين « (آل عمران
١٣٣-١٣٦) •

٤ - « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا
يجرمكم شتان قوم على ألا تعدلوا • اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا
الله ان الله خبير بما تعملون « (المائدة ٨/٥) •

٥ - « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله
أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم « (التوبة ٧١/٩) •

٦ - « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله
بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى
سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله
واسع عليم • انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة
ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن
حزب الله هم الغالبون « (المائدة ٥٤/٥ - ٥٦) •

٧ - « قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً

وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا
تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي
هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا
الا وسعها واذا قلتم قاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم
وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون « (الانعام
١٥١/٦ - ١٥٣) .

٨ - اقرأ أيضا سورة المعارج ٧٠ الآيات ١٩ - ٣٥ .

من هذه الآيات نرى بوضوح أن المهتدى بهدى الله أى المسلم الحق
يسبغى أن ينحلى بصفات أساسية ينبع من الايمان والتقوى ، وننعكس فى
سلوك ايحابى يشمل العبادات والأعمال الصالحة وأداء الأمانات وتجنب
المحرمات .

وفيما يلى عرض لهذه الجوانب الأساسية الثلاثة للسلوك الاسلامى
وهى : العبادات ، وأداء الأمانات ، وتجنب المحرمات .

العبادات

ان مفهوم العبادة فى الاسلام يعنى كل عمل صالح يؤديه المسلم
ابتغاء مرضاة الله .

وهو بهذا يشمل العبادات الخمسة المعروفة وهى الصلاة والزكاة
والصيام والحج والجهاد .

كما يشمل كل نشاط انسانى آخر يقوم به المسلم لوجه الله
تعالى ، ويترتب عليه تحقيق خير ما للفرد أو للجماعة .

ومن الواضح أن العمل الصالح الذى يحقق خيرا للجماعة أفضل
من العمل الذى يقتصر على تحقيق خير الفرد . ومن هنا كان ثواب العمل
الأول أعظم . وكلما ازداد عدد الجماعة ازداد ثواب العمل .

**ان جميع العبادات الأساسية فى الاسلام هى أعمال صالحة ،
ويترتب عليها كذلك أعمال صالحة :**

فالصلاة :

نشاط انسانى يومى يصل المسلم بخالقه ، ويجدد هذه الصلاة
خمس مرات كل أربع وعشرين ساعة .

ويرتبط هذا النشاط بتكوين عادات حسنة عند المسلم منذ طفولته :
ومنها التعود على النظافة ، وطهارة الثوب والمكان والبدن ، وتربية
المسئولية نحو الجماعة .

والصلاة كذلك نشاط نفسى وجسمى متكامل ، ومتكرر ، ومن ثم
فهى تسهم فى حفظ طاقات المسلم (ولا سيما فى وقت الشباب) أن
تتبدد فى نشاطات ضارة ، كالانشغال بملذات الجنس دون التقيد بالزواج
ومسئوليته ، أو الانسحاق وراء ما يجره الفراغ الروحى من ضياع
الانسان فى سباق لاهث لتحقيق أهداف خاطئة ، كأن يصبح متاع الدنيا

• وجمع المال أكبر همه • أو أن يقضى الإنسان حياته بلا هدف مجهود يربطه
مصيره بالله ولقائه في الحياة الآخرة •

والصلاة إذا أداها المسلم بروح الإخلاص والخشوع لله - فلا بد أن
تنعكس في سلوكه حسن ، ومعاملة طيبة للناس جميعا ، وللمسلمين بوجه
خاص ، ولا سيما للضعفاء منهم والمساكين ، كما قال الله تعالى في حديث
قدسي :

« إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطع بها
على خلقي ، ولم يبت مصرا على معصيتي ، وقطع النهار في ذكرى ، ورحم
المسكين وابن السبيل والأرملة والمصاب ، (البزار) •

إن للصلاة في الإسلام منطقتها الجميل الذي لا يتخلف ، وهو أن
لها مفعولا روحانيا عميقا يسرى في كل تصرفات المسلم ، وبمقتضاه
ينأى عن كل قبيح وكل شائن من الأقوال والأفعال •

فلا يمكن للمسلم أن يصلي ويكذب ، أو يصلي ويخون الأمانات •
أو يصلي ويغش الناس ، أو يصلي ويزني أو يسكر ••• إذا لم يستح
المسلم من ربه فصلي له ثم جرؤ على عصيانه ، واستحل حرماته ، فلا يمكن
أن تكون صلاته صلاة مؤمن صادق ، بل صلاة منافق يرائي بها الناس ،
لأن الصلاة قد وصفها الله تعالى فقال :

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت ٤٥/٢٩) •

وقال صلى الله عليه وسلم :

« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » •

ولهذه الأهمية العظمى للصلاة في الإسلام عدت اقامتها من خصائص
المسلم ، وتركها عمدا من خصائص الكافر ، كما قال الرسول صلى الله
عليه وسلم :

« بين الرجل (أى المؤمن) وبين الكفر ترك الصلاة » (مسلم) •

والانفاق :

تكرر وصف المؤمنين بالانفاق كما تكرر الأمر به والحث عليه في آيات كثيرة تزيد على الأربعين آية ، منها قوله تعالى :

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » (ابراهيم ١٤/٣١) .

والأمر فى هذه الآية بالصلاة والانفاق يقتضى أن كليهما فريضة .

وقال تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فأنفقوا ما كنتم تكنزون » (التوبة ٩/٣٤ - ٣٥) .

فكنز المال وعدم انفاقه فى سبيل الله هو سلوك الكافر الذى يؤدى به الى جهنم حيث يعاقب بهذه الصورة التى ينقلب فيها ماله فيصبح أداة عقاب له .

أما المؤمن فينفق من ماله وهو يعلم أنه ليس مالكة الحقيقية ، وإنما هو مستخلف فيه من الله :

« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (الحديد ٧/٥٧) .

وحين ينفق المؤمنون من أموالهم فإنهم لا يكونون بهذا الانفاق متفضلين على الفقراء ، وإنما يكونون قد قاموا بأداء حقوقهم . ولذلك وصف الله المؤمنين فى القرآن فقال تعالى :

« والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (المعارج ٧٠/٢٤ - ٢٥) .

ومن فضل الله وكرمه أن يجزى المنفقين بعد ذلك خير الجزاء فى الدنيا والآخرة :

«وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» (سبأ ٣٤/٣٩) .

«الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة ٢٧٤/٢) .

والمؤمن التقي لا يلهيه المال ولا الولد عن الانفاق ، فيسارع به قبل أن تنصرم الحياة ويفوت الأوان :

«وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحداكم فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها والله خير بما تعملون» (المنافقون ٦٣/١٠-١١) .

والانفاق غير الزكاة بدليل ذكرهما معا في آية البر (البقرة ١٧٧/٢) ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : «ان فى المال لحقا سوى الزكاة» ثم تلا «ليس البر أن تولوا وجوهكم» الآية .. (رواه الترمذى) .

والانفاق يعنى بالدرجة الأولى الانفاق من المال ، ولكنه يشمل ما هو أعم من المال ومن النعم التى أنعم الله بها على الانسان . والتعبير القرآنى «مما رزقناهم ينفقون» تعبير عام يشمل مختلف النعم التى رزقنا الله بها : فالغنى ينفق على المحتاجين ، والعالم يعلم الجاهل والطبيب يعالج المرضى .. فكل ينفق مما عنده على من يحتاجه .

وتكرار الانفاق من صفات المؤمنين المتقين يؤكد بصورة لا تقبل الشك أنه يأتى فى الاسلام على رأس العبادات والأعمال الصالحة التى لا يمكن بدونها أن تقوم للمجتمع الاسلامى قائمة . والحقيقة فى الاسلام هى أنه لا تقوى بل ولا ايمان بدون انفاق . وليتكلم أغنياء المسلمين وأذئابهم من «العلماء» ما شاءوا عن صلاتهم وصيامهم وحجهم ، فكل ذلك لا قيمة له بدون الانفاق على حاجات المسلمين حتى تسد هذه الحاجات جميعا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهل الفقراء اذا جاعوا أو عروا الا بما يصنع أغنياؤهم» (رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير) .

والغريب أن بعض العلماء يرون بأعينهم ما تعانيه جماهير المسلمين من ذلة وبؤس ، وكيف طحنها الفقر وهدها المرض ، وأضلها الجهل بدين الله عن الفلاح فى دنياها وأخراها - ومع ذلك لا ينجحون من

الحديث عن موضوعات مثل : « الاسلام دين العدل والرحمة » « الاسلام دين العلم والعمل » « المجتمع الاسلامي مجتمع التكافل » ٠٠٠ الخ .

وجوه الانفاق :

وقد اوضحت آية البر وغيرها وجوه الانفاق وهي :

- ١ - ذوو القربى : أى أن يصل المسلم رحمه بوجه عام ويبر والديه بوجه خاص .
- ٢ - اليتامى .
- ٣ - الفقراء والمساكين .
- ٤ - ابن السبيل (المسافرين المنقطع والضعيف) .
- ٥ - الرقيق .
- ٦ - الجار .

وقد أمر الله المسلم لا بمجرد الانفاق على هؤلاء بل كذلك بالاحسان اليهم ، فقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (النساء ٣٦/٤) .

فقد ذكرت هذه الآية الوالدين صراحة وجعلت الاحسان اليهما موازيا لعبادة الله كما قال تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » (الاسراء ٢٣/١٧) .

كما ذكرت الجار ذا القربى وهو القريب نسبا أو دارا ، والجار الجنب هو البعيد نسبا أو دارا ، والصاحب بالجنب وهو الزميل فى العمل أو الدراسة أو المرافق فى السفر ، فهو نوع جوار . وفى الاسلام

للجار الكافر حق الجوار ، والمسلم حق الجوار والاسلام ، والمسلم
القريب حق الجوار والاسلام والقراية .

شروط الانفاق :

١ - أن يكون ابتغاء وجه الله : لقوله تعالى :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من
أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها
وابل فطُل » (البقرة ٢٦٥/٢) .

« وما تنفقوا من خير فالأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله »
(البقرة ٢٧٢/٢) .

٢ - ألا يشوبه رياء : وهذا الشرط مترتب على الأول ، ولأن الرياء
من صفات الكافرين والمنافقين لقوله تعالى :

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله
من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا » . والذين ينفقون أموالهم رياء
الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » (النساء ٣٧/٤ - ٣٨) .

٣ - ألا يشوبه من ولا أذى ، لقوله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا
ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
(البقرة ٢٦٢/٢) .

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » (٢٦٣/٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذي ينفق
ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢٦٤/٢) .

وهذه الآيات تؤكد أن للفقير كرامة يجب أن تراعى ، وأن المنفق
ليس متفضلا عليه ، وإنما هو يؤدي حقه إليه .

٤ - أن يكون من كسب حلال طيب ، لقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » (٢٦٧/٢) •

ولقوله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله طيب لا يقبل الا طيبا » (مسلم) •

٥ - أن يكون باعتدال ، أى بين الاسراف والتقتير ، كما قال تعالى فى وصف المؤمنين :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »
(الفرقان ٦٧/٢٥) •

والزكاة :

هى الحد الأدنى من صور الانفاق المفروضة فى الاسلام • وتجب فى أنواع عديدة من أنواع الملكية ومصادر الثروة :

• فتجب فى النقود (الذهب والفضة) والأوراق النقدية •

• وتجب فى عروض التجارة والصناعة بعد تقويمها •

• وتجب فى الأنعام وفى الزروع والثمار وفى المعادن والركاز ،
أى فى أهم مصادر الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية •

وتتراوح نسبتها بين :

٢ ١/٢ بالمائة فى النقود وعروض التجارة والصناعة اذا بلغت النصاب (١) وحال عليها الحول •

٢ ١/٢ بالمائة (تقريبا) فى الثروة الحيوانية التى تقتنى للدر والنسل ، اذا بلغت النصاب وحال عليها الحول •

(١) النصاب عشرون دينارا أى ما يعادل أربعين دولارا (تقريبا) • ويشترط فى النصاب أن يكون زائدا عن الحاجة الضرورية وخاليا من الدين •

بين ٥ - ١٠ بالمائة فى الثروة الزراعية فى كل حصاد .
٢٠ بالمائة فى كنوز الأرض و ثرواتها المعدنية . (وان اختلف
الفقهاء هل تصرف هذه فى مصارف الزكاة فقط أم فى المصالح العامة
للدولة) .

ومن هذا يتبين أن الدخل الذى يتجمع من الزكاة وحدها هو دخل
كبير ، ينبغى - إذا جمع ونظم - أن يقوم بدور حاسم فى حل مشاكل
التخلف عند المسلمين ، ولا سيما مشكلة الفقر (١) .

فإذا لم تكف الزكاة فعلى الحكومة الإسلامية أن تتخذ ما تراه
ضروريا من الوسائل لتحقيق مصالح المسلمين . وقد سبق الاستشهاد
بآية البر التى تبين أن فى المال حقا سوى الزكاة . بل ان الاسلام يجعل
التكافل فى المجتمع الإسلامى فريضة لازمة ، لقوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (التوبة ٧١/٩) .

« انما المؤمنون اخوة » (الحجرات ١٠/٤٩) .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (البخارى) . وقوله :

« ايما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة
الله (الحاكم) .

هذا كله بالإضافة إلى الواجب الأساسى على الحكومة الإسلامية وهو
اتاحة العمل لكل قادر ، وضمان الكفاية لكل عاجز .

وتنفق أموال الزكاة على مستحقيها وهم ثمانية أنواع :

١ - الفقراء : وهم المحتاجون الذين لا يسألون الناس .

٢ - المساكين : وهم المحتاجون الذين يسألون .

٣ - العاملون عليها : وهم موظفو الزكاة الذين يتولون جمعها وتنظيم
صرفها .

(١) راجع بنوسع : يوسف القرضاوى : فقه الزكاة فى جزئين ومشكلة الفقر وكيف
عالجها الاسلام .

- ٧ - المؤلفة قلوبهم : وهم المحتاجون ممن اعتنقوا الاسلام حديثا .
 - ٥ - الغارمون : وهم المدينون المستغرقه أموالهم بالديون .
 - ٦ - فى الرقاب : وهم الأرقاء .
 - ٧ - أبناء السبيل : وهم المسافرون الملقطون عن أموالهم .
 - ٨ - فى سبيل الله : وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ويشمل اعانة المجاهدين ، وعلاج المرضى ، وتعليم العاجزين ماليا عن التعليم .
- وهذه الأنواع الثمانية هى المذكورة فى قوله تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (التوبة ٦٠/٩) .

مفهوم الصدقة :

يتبادر الى الذهن من الاستعمال الشائع لكلمة الصدقة أنها تفضل غنى على فقير بقليل من المال .

وهذا مفهوم غريب على الاسلام .

فالحقيقة أن الاستعمال الاسلامى لكلمة الصدقة يؤكد أنها ليست تفضلا بحال من الأحوال ، وليست مقتصرة على اتفاق المال .

أما أنها ليست تفضلا فهذا واضح من تسمية الزكاة (وهى فريضة) صدقة ، كما فى آية الصدقات ، وكما فى قوله تعالى :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (التوبة ١٠٣/٩) .

أما الصدقات الأخرى غير الزكاة فلا شك أنها جميعا صور للانفاق من مال لا يملكه صاحبه ملكا حقيقيا ، وإنما هو مستخلف فيه كما سبق . وهو فى حقيقته مال الله كما قال تعالى :

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور ٣٣/٢٤) ،

فلا يمكن أن يكون تفضيلاً ، بل هو حق من حقوق شكر النعمة ،
ولو لم يغم به الغنى لكان - على الأقل - كافراً بالنعمة .

يضاف الى ذلك ان مفهوم الصدقة فى الاسلام له أبعاد واسعة زمنية
 واجتماعية .

فالصدقة الجارية يمتد نطاقها الى أزمان متطاولة حتى يشمل نفعها
أجيالا عديدة من المسلمين بعد موت المتصدق بها ، كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم
ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (مسلم) .

ومن أروع صور هذه الصدقة الأوقاف الاسلامية التى وقفها بعض
أغنياء المسلمين فى شتى العصور للانفاق من ربحها على وجوه عديدة من
وجوه البر ، ولا سيما على مؤسسات التربية والتعليم .

ولمفهوم الصدقة أبعاد اجتماعية جميلة ، بحيث تشمل أى صورة من
صور العطاء يقدمها المسلم لأخيه المسلم فى العلاقات الاجتماعية ، كما
قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ليس من نفس ابن آدم الا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه
الشمس » قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟
فقال : « ان أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع
الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك
مع اللفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . فهذا كله
صدقة منك على نفسك » رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى مختصرا ،
وزاد فى رواية : « وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، واماطتك الحجر
والشوكة والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل فى أرض الضالة
لك صدقة » . وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه :

« كل سلام من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس :
تعديل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتخمله عليها أو ترفع
له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها الى
الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (الشبخان) .

ولا شك أن هذا الحديث يجعل مفهوم الصدقة جامعا لكل معاني الخير التي تربط أفراد المجتمع المسلم برباط الحب والاخاء (١) .

والصيام :

ليس الصيام في الاسلام مجرد معاناة للجوع والعطش ، وانما هو تدريب للمسلم على ضبط الشهوات ولا سيما شهوات البطن والفرج ، والتخلص من آفات اللسان وآفات السلوك . ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم ألا يمسك عن الطعام والشراب فحسب ، بل وأن يمسك عن الصخب والفحش وعن قول الزور والعمل به ، وقال :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » (البخارى) . ان من أعظم الشرور في عصرنا الحاضر امتلاء بطون بعض الأغنياء الى درجة التخمّة ، بينما يتضور الملايين من فقراء المسلمين جوعا . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » .

ان نعمة الطعام هي من أجل نعم الله على الانسان ، والصيام ينبغي ان يذكره بهذه النعمة ، كما ينبغي أن يذكره بشكرها ؛ وذلك بالانفاق منها على المحتاجين وما أكثرهم ! وقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين :

« وَيُطْعَمُونَ الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا »

(الانسان ٧٦ / ٨) .

ولذلك ارتبط الصيام في الاسلام بالانفاق ، وارتبط صيام رمضان بوجه خاص بزيادة الانفاق ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان أجود من الريح المرسلة .

ومن الواضح أن حشو المعدة بالطعام في ثلاث وجبات يومية ، والاستمرار على ذلك طوال العمر - هو من أخطر العادات التي جلبتها الحضارة الحديثة . وقد أكد الطب والخبرة الانسانية أن امتلاء المعدة بالطعام يؤدي الى كثير من أمراض الجسم والنفس كما قال صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع محمد قطب : قبسات من الرسول ص ١٠٨ - ١٢١ .

« ما ملأ ابن وعاء شراً من بطنه » .

ولذلك فإن التخفيف من أعباء المعدة بعض الشيء سيؤدي لا إلى صحة الجسم فحسب بل إلى صحة المجتمع كله ؛ لأن « طعام الاثنين يكفي الثلاثة » كما قال صلى الله عليه وسلم .

أليس من الخزي والعار أن يسرف بعض أغنياء المسلمين فيكثرون من أنواع الطعام في حفلاتهم ثم لا يستطيعون أكله جميعاً فيقذفون بما تبقى منه - وهو يكفي لإطعام أسر كاملة - في صناديق القمامة ؟

فأى لؤم هذا وأى كفر !؟

ويرتبط صيام رمضان كذلك بالاعتكاف .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان .

والاعتكاف له معان جميلة ما أوجنا إليها في عصرنا هذا ، عصر الآلة والضوضاء ، والثرثرة الاجتماعية التافهة ، واللغو الاعلامي الغث ، والسباق المحموم من أجل شهوات العاجلة .

ولا شك أن سمات عصرنا هذه قد أدت - ولا نزال تؤدي - إلى كثير من التوتر والقلق ، بل وإلى كثير من أمراض النفس والعقل . إنها لا تؤدي إلى قتل الوقت فحسب ، بل إلى قتل الإنسان نفسه .

إن الإسلام دين اجتماعي لا يشجع على العزلة والفرار من معمة الحياة .

والاعتكاف - لذلك - ليس هروباً وليس رهبانية .

وانما هو وقفة قصيرة للمؤمن في رحلة الحياة .

وقفة يلقي خلالها نظرة هادئة شاملة على ما قطع من الطريق ، وما بقي منه ، ويحاسب نفسه - في خلوة العابد المتبتل - على ما فرط في جنب الله . . ثم لتنظر نفسه ما قدمت لغد . .

وخلال الاعتكاف يمارس المسلم حياة التأمل في النفس والكون ، وهي الحياة التي دعا إليها القرآن في كثير من الآيات ، ووصف المؤمنين بأنهم :

« يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » (آل عمران ١٩١/٣) .

واذا سألنا أنفسنا : لماذا تعاني حياتنا الفكرية والوجدانية الحاضرة كثيرا من التفاهة والسطحية ؟ فسنجد أن ذلك يرجع الى أسباب عديدة من أهمها أننا لا نهتم كثيرا بحياة التأمل والتفكير ، وأن السمة الغالبة على كثير من علمائنا ومفكرينا هي التريديد : التريديد لما قاله منذ زمن طويل علماء كانوا لا شك مجتهدين ولكنهم لم يكونوا معصومين ، أو التريديد لآراء ومذاهب غربية ينقض بعضها بعضا ، وقد نبذها كثير من الغربيين أنفسهم ، بينما تستمر ببغاواتنا في تريديدها والدعوة اليها .

في الاسلام ، ليس التأمل غاية ، وإنما هو وسيلة الى الايمان والعمل الصالح . ولهذا فان حياة التأمل خلال الاعتكاف تنرى الفكر والوجدان ، وتذكر المسلم بالله ؛ فتنقذه من نسيان نفسه اذا نسى الله ؛ كما تنقذه من تفاهات الحياة الدنيا ، فيعد نفسه للقاء الله بالاقبال على الله . ومن ثم يستأنف المسلم مسيرته بعد الاعتكاف وقد ازداد عزما على المسارعة في الخيرات ، والاستكثار من الصالحات ، واداء الأمانات التي هي حقوق الله وحقوق العباد .

ان المسلم يخرج من الصيام ومن الاعتكاف وقد نزود بالتقوى ، وهي خير زاد في رحلة الحياة ، ومن أجلها كتب علينا الصيام :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم اعلكم تتقون » (البقرة ١٨٣/٢) .

والحج :

يقول الله تعالى :

« الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة ١٩٧/٢) .

ان الحيرات الروحية والاجتماعية ، والدينية والآخرية ، التي تعود على كل مسلم أنخلص حجه لله - هي خيرات كثيرة معروفة .

ويكفى تجرد المسلم فيه عن علائق الدنيا ، ورحيله الى ربه بملابس الاحرام ، التي تذكره بموقفه أمام الله يوم الحساب .

ويكفى أن الحج تعبير عملي عن أخوة المؤمنين ، وأنه اجتماع هائل
لأمة يرتبط أفرادها برباط الأخوة في الله ، ويرفضون روابط الجاهلية
بالانساب والألوان .

والجهد :

الجهاد في سبيل الله يشمل كل جهد يبذله المسلم للدعوة إلى الله ؛
بالكلمة والقدوة والنفس والمال .

وهذا يشمل الجهاد في كل ميادين الحياة الانسانية ؛ لتحويلها من
طريقها الحالي المظلم المسدود ، إلى طريق الله ، الذي يفتح بها على آفاق
لا محدودة من الخير والنور .

وللجهاد في الاسلام مستويات كثيرة ، تبدأ بانكار القلب ، وتنتهي
بالقتال في سبيل الله .

وبين ذلك الجهاد بالتربية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) .
والدعاة المسلمون في عصرنا الحاضر في أشد الحاجة إلى التسليح
بالعلم ، والخلق الكريم ، وتقديم الاسلام إلى الناس بالقدوة الطيبة والعمل
الصالح .

وهذه أفضل طريقة لامثال قوله تعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٦/١٢٥) .

(١) راجع المودودي وحسن البنا وسيد قطب : الجهاد في سبيل الله والغزالي : الاحياء

٤/٧ ، وابن تيمية : الحسبة في الاسلام .

أداء الأمانات

قال تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٥٨/٤) .

والأمانة بوجه عام هي تحمل المسؤولية في كل عمل يؤديه المسلم في علاقاته بالله والناس .

ومن ثم فالأمانات تشمل أداء حقوق الله وحقوق العباد . وحقوق الله هي الإيمان به وعبادته وحده والعمل بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وحقوق العباد - وأداؤها يعتبر أداء لحقوق الله - تشمل :

في دائرة الأسرة : حقوق الوالدين ، وحقوق الزوجية ، وحقوق الأولاد ، وحقوق الأقارب .

وفي دائرة المجتمع المسلم : حقوق الجيران ، وحقوق المسلمين وحقوق غير المسلمين .

وفي دائرة الانسانية : حقوق الناس جميعا .

وفي دائرة البيئة الطبيعية : حقوق الطبيعة وحقوق الحيوان .

وفيما يلي نعرض هذه الحقوق بإيجاز :

حقوق الوالدين : حبهما وطاعتهما (الا في معصية) ، وبرهما بكل صور البر والاحسان ، في الحديث والصحبة والخدمة والانفاق والافتداء بالنفس والمال . وحقوق الأم في كل هذا أكبر من حقوق الأب :

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا

كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني
صغيرا » (الاسراء ٢٣/١٧ - ٢٤) .

« ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في
عامين أن أشكر لي ولوالديك الى المصير » (لقمان ١٤/٣١) .

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات أن أحق الناس
بحسن صحبة الابن هي أمه ، ثم أبوه . (في حديث متفق عليه) .

وعقوق الوالدين يعد من أكبر الكبائر في الاسلام ، حتى لقد قرنه
الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك وقتل النفس وشهادة الزور .
(في حديث البخاري) .

حقوق الأولاد : وأهمها تربيته من طفولتهم على الاسلام .

ويجب على الزوج الاعداد لذلك باختيار الزوجة الصالحة ، أي الأم
التي تقع على عاتقها هذه المسؤولية وبخاصة في السنوات الأولى من
الطفولة ، بل وأثناء الحمل ؛ حيث تكون عادات الأم الصالحة في العبادة
والطعام والشراب والنوم من أهم العوامل التي تؤثر تأثيرا حسنا على
الصحة الجسمية والنفسية للطفل قبل ولادته .

ومن حقوق الأولاد على الوالدين القيام بالانفاق عليهم ورعايتهم
ومعاملتهم معاملة حسنة تقوم على الرفق ولا يلجأ منها الى العنف (أي
العقوبات الجسدية والنفسية) الا عند الضرورة القصوة . والأسوة
الحسنة في ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ما ضرب أحدا قط
لا امرأة ولا طفلا ولا خادما . .

ولم يكن أحد أحب للعيال منه ، وهو الذي قال : « الرفق خير كله
وان الرفق لا يكون في شيء الا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه » (مسلم) .

ومن حقوق الأولاد أن يعاملهم الوالدان بالعدل كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يشهده على أنه يريد أن يخص بعض أولاده
بهدية ويحرم الباقيين : « لا تشهدهني على جور . اتقوا الله واعدلوا في
أولادكم » (الشيخان وأبو داود) .

ومن العدل ألا يفضل البنين على البنات ؛ بل عليه أن يزيد في ملاطفة
البنات واکرامهن ، وذلك لضعفهن ، أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم
بالضعفاء وبخاصة النساء واليتامى .

وقال عليه السلام :

« من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضم أصابعه • (مسلم) •

وقال : « اللهم انى أخرج (أى أوثم من ضيع) حق الضعيفين اليتيم والمرأة » (النسائي) •

وكان صلى الله عليه وسلم اذا رأى فاطمة قد أقبلت رحب بها ثم قام اليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه (البخارى) •

وقد نعى القرآن الكريم على الذين كانوا يئدون البنات :

« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » (النحل ١٦ / ٥٨ - ٥٩) •

حقوق الزوجية : تقوم العلاقة الزوجية فى الاسلام على المودة والمحبة والرحمة ، وبذلك تكون علاقة متينة ، يقوم عليها سلام البيت وسكينة النفس كما قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (الروم ٢١ / ٣٠) •

ومن ثم فالزوج المسلم مأمور أن يعاشر زوجته معاشرة طيبة ، وان يعاملها معاملة كريمة، وحتى لو كره منها شيئا فعليه أن ينظر الى مزاياها ولا يركز على عيوبها ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يفرك مؤمن مؤمنة (أى لا يبغضها) ؛ ان كره منها خلقا رضى منها آخر » (مسلم) •

وقال الله تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء ١٩ / ٤) •

والزوج مسؤول عن الرعاية المالية لزوجته ؛ وذلك بالانفاق عليها فى جميع ما تحتاج اليه حسب استطاعته •

وهي مسؤولة عن رعاية شؤون بيته ؛ بحيث تجعله مأوى يلوذ به من عناء الحياة وعنت الأحياء .

وهذه العلاقة الجميلة تتوطد بتقوى الله وعبادته ، كما تتوطد بتعاون الزوجين على البر والتقوى ، ومشاركتهم في تربية الأولاد تربية اسلامية .

ولأن الاسلام قد أقام الزواج على أساس متين من علاقات الفطرة التي تتشابه فيها مشاعر الحب والرحمة ، مع ملذات الجنس المحدودة بمسئوليات الانجاب والتربية ، فان هدم هذا البناء هو عمل يبغضه الاسلام ويبغضه الله أشد البغض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أبغض الحلال الى الله الطلاق » (أبو داود والحاكم) (١) .

صلة الرحم : هي أداء حقوق الأقارب ؛ لقوله تعالى :

« وآت ذا القربى حقه » (الاسراء ١٧ / ٣٦) .

وقد قرن الله الأمر بعبادته وحده بالأمر بالانحسان الى الوالدين وذوى القربى وكل من يستحقون الصلة من الفقراء والضعفاء فقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (النساء ٤ / ٣٦) .

وفى سورة الرعد وصف الله المؤمنين بصفات جميلة فقال تعالى :

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يسهلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويبدءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » (الرعد ١٣ / ٢٠ - ٢٢) .

وهي صفات متكاملة ، يرتبط فيها الوفاء بالعهد بحسن الصلة بالله والناس ووجوب التعبير العملي عن هذه الصلة بالاتفاق والتسامح .

ووصف الكافرين بعكس هذه الصفات فقال تعالى :

(١) اذا كان الطلاق من حق الرجل عند الضرورة القصوى ، - فان الخلع من حق المرأة عند الضرورة القصوى كذلك ، وهي الا تطبيق زوجها بغضا . وفى هذه الحالة يجب أن ترد اليه مهرها . والأصل فى ذلك ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجة ثابت بن قيس حيث أمرها أن ترد عليه حديقته ، وأن يطلقها (الشيخان) .

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض • أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »
(الرعد ١٣/٣٥) •

وقد أكدت السنة أن الايمان الصادق ينبغي أن ينعكس في صلة ذوى الأرحام •

فقال صلى الله عليه وسلم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » (متفق عليه) •
وبر ذوى القربى هو بر يضاعف له الأجر كما قال صلى الله عليه وسلم :

« الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوى القربى صدقة وصلة »
(الترمذى) •

والمسلم مأمور بصلة ذوى القربى جميعا حتى ولو كانوا كفارا •
فعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صلى أمك » (متفق عليه) •

حقوق الجوار : وردت الوصية بالجوار فى القرآن الكريم كما سبق فى آية النساء • وأكدت السنة النبوية هذه الوصية فقال صلى الله عليه وسلم :
« مازال جبريل يوصينى بالجوار حتى ظننت أنه سيورثه (متفق عليه) •
كما أكدت أن اكرام الجار هو ثمرة من ثمرات الايمان ؛ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (متفق عليه) •

ومن واجبات المسلم نحو جاره أن يعينه فى الضراء ، ويوده فى السراء ، ويجنبه كل أذى : قال صلى الله عليه وسلم : « والله لا يؤمن •
والله لا يؤمن » قالوا : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » (متفق عليه) •

والبوائق هى الشرور التى تصيب الجيران فى أموالهم ، أو أولادهم ، أو أعراضهم ، أو أى سلوك يتسبب عنه أذى لمشاعرهم ، أو اقلق لراحتهم ، ولا سيما عن طريق الضجيج والضوضاء ؛ كما هو شائع الآن من الاستعمال الفظ لمكبرات الصوت والمذياع والتليفزيون • الخ •

ان ايداء الجار بأية صورة من الصور يتنافى مع مفهوم العبادة فى الاسلام .

فالعبادة الحققة هى التى يترتب عليها سلوك حسن ومعاملة طيبة للناس جميعا ، ولا سيما للجيران . وبدون ذلك فلا معنى للعبادة ولا قيمة لها . ولما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن امرأة تصوم النهار وتقوم الليل ولكنها تؤذى جيرانها قال : « هى فى النار » (أحمد والحاكم) .

وحقوق الجار فى الاسلام تشمل المسلم وغير المسلم . وقد كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عندما يذبح شاة يهدى منها لجيرانه ، ويقول : « ابدءوا بجارنا اليهودى » .

حقوق المسلمين : قال الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة » (الحجرات ١٠/٤٩)

ومن حقوق هؤلاء الاخوة مودتهم وموالاتهم لقوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (التوبة ٧١/٩) .

ومن أجل تأكيد صلات الاخوة بين المؤمنين أوجب الاسلام على كل مسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » (مسلم) . كما أوجب على كل مسلم أن يعين أخاه فى وقت الشدة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، (الشيخان) . وأن ينصحه ؛ لأن الدين النصيحة .

وأن يشاوره ؛ لأن المؤمنين « أمرهم شورى بينهم »

(الشورى ٣٨/٤٢) .

وأن ينصره مظلوما فيعينه على أخذ حقه ، وينصره ظالما بأن يكفه عن الظلم .

وأن يتعاون معه على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان . وأن يوده ويدعوه ويجيب دعوته ولا يقاطعه أو يهجره فوق ثلاث . وأن يتجنب كل ما يسىء اليه أو يضره فى حياته أو ماله أو عرضه ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام :

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » (متفق عليه) .
كما يتجنب كل سلوك يؤدي الى بذر العداوة بين المسلمين ، أو استفحالها ؛
أو يؤدي الى اضعاف قوتهم ، ونفرقة جماعتهم ؛ ولا سيما الغيبة ، والنميمة ،
والسخرية ، وسوء الظن ، والتجسس ، واللمز ، والتنازع باللقاب . وهى
الردائل التى حرمها الله تعالى على المؤمنين فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يستشر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا
منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تملزوا أنفسكم
ولا تنابزوا باللقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك
هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن
اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يحب احدكم أن يأكل لحم أخيه
ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (الحجرات ١١/٤٩ - ١٣) .

ومن حقوق المسلمين أن يهتم المسلم بقضاياهم ، ويشعر بالامهم ،
ويحمل همومهم ؛ لأنه واحد منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم :
« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

حقوق غير المسلمين :

إذا كانوا مسلمين ؛ أى لا يعتدون على المسلمين ؛ ولا يقاتلونهم فى
دينهم ؛ ولا يخرجونهم من ديارهم - فيجب على المسلمين معاملتهم ليس
بالعدل فحسب ؛ بل بالبر والاحسان كذلك . وهذا الحكم يشمل غير
المسلمين جميعا حتى المشركين والوثنيين .

والأصل فيه قوله تعالى :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من
دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (الممتحنة
٨/٦٠) .

أما أهل الكتاب فان الاسلام يعاملهم معاملة خاصة ؛ فيسميهم
« أهل الكتاب » ، إشارة الى أنهم أقرب الى المسلمين من غيرهم ، لأنهم
يؤمنون بكتب منزلة من عند الله ، كانت فى أصولها - أى قبل تحريفها -
تدعو الى التوحيد . والمسلمون مطالبون بالايمان بالكتب الموحى بها ،
وكذلك برسل الله جميعا .

وقد أباح الاسلام للمسلمين صورا شتى من مودة أهل الكتاب ،

ومنها مؤاكلتهم ، وأكل ذبائحهم ومصاهرتهم ، أى التزوج ببنايتهم .
فاذا كانوا يقيمون فى ظل الدولة الاسلامية ، فانهم فى هذه الحالة
يعاملون كمواطنين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، الا فيما يخص
الدين ، فانهم لا يكرهون على الاسلام ، وقد أمرنا أن نتركهم وما يدينون .
كما يجب على الدولة الاسلامية حماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ،
ويجب على كل مسلم أن يتجنب كل ما فيه أذى لهم أو اضرار بهم .
قال صلى الله عليه وسلم :

« من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله » (الطبراني) .
« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقتة ، أو أخذ
منه شيئا بغير طيب نفس منه — فأنا حجيجة يوم القيامة » (أبو داود) .

حقوق الرعية :

يرى ابن تيمية (١) أن الآية الكريمة :
« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس
ان تحكموا بالعدل » (النساء ٥٨/٤) .
تشير الى مسؤولية الولاية بوجه خاص .
والولاية عنده تشمل كل عمل عام يمس حقوق الناس لقوله صلى
الله عليه وسلم :
« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (الشيخان) .
وولاية المسلمين مأمورون من الله بأداء الأمانات الى أهلها ، والحكم
بين الناس بالعدل .
وأداء الأمانات عنده نوعان : فى الولايات ، وفى الأموال .
ففى الولايات يجب على كل رئيس فى أى مجال من مجالات العمل
العامة فى المجتمع أن يولى على كل عمل أصلح من يجده لذلك العمل ؛
لقوله صلى الله عليه وسلم :

(١) السياسة الشرعية ص ٦ ، ٢٧ .

« من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله » وفي رواية « وخان المؤمنين » (الحاكم) .

أما في الأموال فإن يأخذ المال من حله (أى من مصادره المشروعة) ، ويعطى منه لكل ذى حق حقه . فان لم يفعل فقد ارتكب كذلك خيانة لله ورسوله والمؤمنين .

ويرى الماوردى (١) أن حقوق الأمة الإسلامية على الامام (أى واجباته نحوها) هى :

- ١ - حفظ الإسلام على أصوله وحمايته من البدع والشبهات .
- ٢ - نشر العدل
- ٣ - حفظ الأمن
- ٤ - إقامة الحدود (العقوبات المقررة فى الشريعة) .
- ٥ - تحصين الثغور (أى حماية الدولة الإسلامية بكل وسائل الدفاع)
- ٦ - الجهاد لنشر الإسلام
- ٧ - جباية المواد المالية للدولة
- ٨ - صرف الرواتب والمكافآت لمستحقيها .
- ٩ - تولية ذوى الكفاءة والأمانة فى شتى مناصب الدولة .
- ١٠ - الاشراف العام بنفسه على شئون الدولة بحيث لا يتكل على تفويض غيره .

فاذا أدى الامام هذه الحقوق وجب له على الأمة حقان :

الطاعة والنصرة .

حقوق البيئة الطبيعية :

وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى الأرض وما فيها من ثروات طبيعية ومناظر جميلة ، وبخاصة ما فيها من أنهار وبحار وأودية

(١) الأحكام السلطانية ص ١٥ - ١٧ .

وجبال ؛ وزروع ناضرة وجداث ذات بهجة ؛ وحيوانات تجمع بين النفع والجمال .

وبالإضافة الى أن هذه الآيات توقظ في وجدان المسلم الاحساس بجمال الطبيعة - فهي تدعوه كذلك الى اعتبار هذا الجمال من أجل نعم الله على الانسان .

وأقل ما يقتضيه شكر هذه النعمة المحافظة عليها ؛ وعدم تعريضها للتخريب والفساد . ولذلك فان اهلاك الحرث والنسل يعد في القرآن الكريم من أقبح صور الفساد التي يبغضها الله .

وشكر نعمة الله في الزروع والثمار يتخذ في القرآن صورة عملية جميلة ، هي اتاحة المسلم الذي يملكها لمن لا يملكها حق المشاركة معه ينصيب من خيراتها ، والاستمتاع بطيباتها ، كما قال تعالى :

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الأنعام ١٤١/٦) .

وانظر الى دعوته صلى الله عليه وسلم كل مسلم - حتى في أشد الأوقات حرجا - أن يبذل كل جهد يستطيعه لجعل الأرض جميلة خضراء .

« إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع الا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (البخاري) .

بل انظر الى دعوته صلى الله عليه وسلم كل مسلم أن يجعل زروعه وثماره متاحة ليس للانسان فحسب ، بل وللحيوانات والطيور كذلك :

« لا يغرس مسلم غرسا فيأكل منه انسان ولا دابة ولا طير الا كان له صدقة الى يوم القيامة » (الشيخان) .

أما حقوق الحيوان فيكفي أن نعرض هذه الصور من السنة :

قال صلى الله عليه وسلم :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش . فقال

الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ متى .
فنزل البئر فملاً خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ،
فشكر الله له فغفر له » . قالوا : « وان لنا في البهائم أجرا يا رسول
الله ؟ » فقال : « في كل كبد رطبة أجر » (الشيخان) .

ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

« دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها
وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (البخاري) .
وعن عبد الله بن مسعود :

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فرأينا خمرة
(طائر مثل العصفور) معها فرخان فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش
(ترفرف) . فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال : « من فجع هذه بولدها ؟
ردوا ولدها اليها » (أبو داود) .

ـ مر عبد الله بن عمر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرا واتخذوه
غرضا (أى هدفا يتعلمون عليه الرمي بالسهم) فقال : ان النبي صلى الله
عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا » (الشيخان وأبو داود)

ـ وقال عبد الله بن عباس :

« نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم »
(أبو داود والترمذي) . والتحريش بينها هو اغراء بعضها ببعض
للقاتل .

ـ وقد حث صلى الله عليه وسلم على العناية بالحيوان وبكل ذي
حياة في قوله : « في كل كبد رطبة أجر » . كما نهى عن تعذيب
الحيوان ، وتحميله ما لا يطيق ، وتعذيب الذبيحة ، وأن يذبح حيوان
أمام آخر .

ـ ومما سبق يتضح أنه يجب على كل مسلم أن يكون رحيمًا
بالحيوان : فيطعمه ويسقيه وإذا مرض يعالجه . وبالجملة يعنى به كل
العناية ، « وانما يزعم الله من عباده الرحماء » .

ومن أهم الأخلاق التي ترتبط بأداء الأمانات :

١ - العدل :

« وهو صفة من أهم صفات المؤمنين المتقين ، التي تنعكس في كل نواحي حياتهم النفسية والاجتماعية والسياسية . »

فالمسلم يكون عادلا مع نفسه ، فلا يظلمها بالانحراف عن شرع الله وتعدى حدوده ، لقوله تعالى :

« ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (الطلاق ١/٦٥) .

وقد أمر الله المؤمنين بالتزام العدل في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ، وألا يشيخهم عن ذلك صلات القرابة والمودة ، ولا مشاعر البغض والعداوة :

« وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى » (الانعام ١٥٢/٦) .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (النساء ١٣٥/٤) .

« ولا يجرمكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (المائدة ٨/٥) .

والآية الأخيرة تدل بوضوح على أن المسلم ينبغي أن يعامل الناس جميعا - مسلمين وغير مسلمين - بالعدل والانصاف . فالعدل في الإسلام مبدأ خلقى مطلق ، يطبق على كل الناس ، وفي جميع الظروف . وليس العدل في الإسلام - كما هو في المجتمعات العنصرية والطبقية - ميزة يحتكر التمتع بها أفراد الجنس الأبيض أو طبقات الأغنياء .

والعدل من أخطر المسؤوليات التي ينبغي أن تتحملها كل حكومة اسلامية . وقد ورد الأمر بالحكم بالعدل في سياق الأمر بأداء الأمانات في قوله تعالى :

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » (النساء ٥٨/٤) .

أما الظلم فإن الآيات والأحاديث الواردة في تحريمه ولعنة مرتكبيه كثيرة مشهورة . ويكفى في شناعة الظلم ان الله حرمه على نفسه ، وان الظلم كان السبب في هلاك كثير من الأمم السابقة كما قال تعالى :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » (يونس ١٣/١٠) .

وبسبب الظلم شرع القتال فى الاسلام كما قال تعالى :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (الحج ٣٩/٢٢ - ٤٠) .

٢ - الوفاء بالعهد :

وهو يجمع عدة أخلاق اسلامية كريمة ، فهو من أداء الأمانات ، وهو من العدل ، وهو من الصدق .

فقد وصف الله المؤمنين برعايتهم للأمانة وللعهد معا فقال تعالى :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون ٨/٢٣) .

وأمر تعالى المؤمنين بالعدل والوفاء بالعهد فى سياق واحد :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا » (الأنعام ١٥٢/٦) .

ومن أهم معانى الصدق صدق المؤمن فيما عاهد عليه ربه من الثبات على دعوة الحق والعمل على اعلاء كلمة الله حتى الموت :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الأحزاب ٢٣/٢٣) .

والوفاء بالعهد مبدأ عام مطلق - ككل مبادئ الاسلام - ولذلك يفى المسلم بعهوده مع الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين . وقد وفى الرسول صلى الله عليه وسلم بما عاهد عليه المشركين فى صلح الحديبية ، فرد أبا جندل اليهم بعد أن أتى الى المدينة مسلما ، وقال له صلى الله عليه وسلم :

« اصبر واحتسب . فان الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . انا أعطينا القوم عهدا وانا لا نغدر بهم » .

نعم : ليس الغدر من مبادئ الاسلام ولا من أخلاق المسلم .

٣ - الصديق :

المسلم يصدق في قوله وفعله ، ويصدق مع نفسه ، ومع الله ، ومع الناس . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »
(التوبة ١١٩/٩) .

وأنشئ الله على المؤمنين بأنهم :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (الأحزاب ٢٣/٣٣) .

ووصف المؤمنين والمؤمنات بالصادقين والصادقات (الأحزاب ٣٥/٣٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما كان من خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة » (أحمد) .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم (فى بعض الحالات) قد يكون جباناً ، وقد يكون بخيلاً ، ولكنه لا يكون قط كذاباً (من حديث مالك) .

وفال صلى الله عليه وسلم :

« ان الصديق يهذى الى البر ، والبر يهذى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وان الكذب يهذى الى الفجور ، والفجور يهذى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (متفق عليه) .

ومن أخبث صور الكذب شهادة الزور ، وقد عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر ، وقرنها لذلك بالشرك وعقوق الوالدين وقتل النفس (البخارى) .

وقد وصف الرحمن عباده بأنهم « لا يشهدون الزور » (الفرقان ٧٢/٢٥) .

الكذب على النفس :

ومن أخفى صور الكذب وأخطرها الكذب على النفس ، وهو خداعها
بشتى الوسائل - كالأماني الكاذبة ، والأهواء والشهوات - لتقبل الباطل ،
وتركن إلى متاع الغرور ، وتهرب من مشقات الالتزام بالحق والعمل به .

وخداع النفس صفة من صفات المنافقين ، لأن شخصية المنافق
- كما سنرى - شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها ، متناقضة الظاهر
والباطن ، مختلفة السر والعلن ، وذلك لأنها سلبت صدق الإيمان الذي
يحقق سكينته النفس عند المؤمن ، لأنه صادق مع نفسه ، وصادق مع
غيره . أما المنافق فمصاب بالقلق الدائم ، لأنه يحاول أن يخدع الله
والناس عن حقيقته ، وفي الواقع لا يخدع إلا نفسه :

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »
(البقرة ٩/٢) .

والكذب على النفس صفة من صفات الكافر أيضا ، وذلك لأن الكافر
يرفض الهدى مع نيقته في أعماق نفسه أنه الحق ، كما قال الله تعالى

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل ١٤/٢٧) .
ولذلك وصفهم الله تعالى بأنهم :

« كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (الأنعام ٦/٣٤)

٤ - الصبر :

من الواضح أن حياة الإنسان على هذه الأرض مليئة بالمتاعب
والمشقات ؛ وذلك لأنها رحلة من عالم النقص إلى عالم الكمال ؛ فهي تشبه
رحلة في بحر متغير الأنواء مضطرب الأمواج . رحلة محفوفة بالمخاطر
والمعاناة حتى يصل الإنسان إلى بر النجاة :

« يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدجا فملاقيه » .

(الانشقاق ٦/٨٤)

وحياة المؤمن الصادق - بوجه خاص - تحفل بمتاعب أكثر ومشقات
أعظم ؛ وذلك لأن حياته دعوة دائمة إلى الخير ، فلا بد أن يقاومها الأشرار .
ولعل هذا الصراع مع الشر هو الذي يجعل حياة المؤمن أطيب وأعمق .

متعة ؛ لأن مقاومة الشر نجعل للحياة معنى وهدفا ، وهو العمل على انتصار الخير فى النهاية . وفى هذا الصراع لابد أن نجد تلازما بين الايمان الصادق والابتلاء ، كما قال تعالى :

« احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »
(العنكبوت ٢٩/٢ - ٣) .

يضاف الى ذلك أن تكاليف الاسلام كلها نحتاج الى الصبر :
فالعبادات كلها تحتاج فى ادائها والمواظبة عليها الى قدر كبير من الصبر والاحتمال . ولذلك يقول الله تعالى :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » (طه ١٣٢/٢٠) .
ونجد الصبر فى القرآن الكريم يقترب بالأعمال الصالحة لاحتياجها اليه ، كقوله تعالى :

« الا الذين صبروا وعملوا الصالحات » (هود ١١/١١) .
يقترب الصبر بوجه خاص بالدعوة الى الله كما فى قوله تعالى :
« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » (السجدة ٣٢/٢٤) .
وقد وصف المؤمنون فى القرآن بأنهم يصبرون فى البأساء والضراء وحين البأس (البقرة ١٧٧/٢) أى فى كل حالات الشدة ؛ ولا سيما فى حالة القتال .

ولأهمية الصبر فى صراع الايمان مع الكفر أصبح من أهم الخصائص النوعية التى تميز المؤمنين ، وتؤدى الى انتصارهم ولو كانوا قلة ، كما قال تعالى :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »
(البقرة ٢٤٩/٢)

تجنب المحرمات

من صفات المؤمن أن يتجنب المحرمات (١) والردائل ، ولا سيما :

الشرك بالله : فيحذر الشرك بكل صوره ، الظاهر منها والخفى .
فلا يتخذ مع الله الها آخر ، ولا يتخذ الهه هواه ، ولا يعتقد أن أحدا ينفعه
أو يضره الا الله . قال الله تعالى :

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »
(النساء ١١٦/٤) .

عقوق الوالدين : وهو من أكبر الكبائر كما مر فى الحديث .

قتل النفس : التى حرم الله . ومن تكريم الله للانسان أنه كرم
حياته وأمر بالمحافظة عليها . فحرم قتل المرء لنفسه (أى جريمة
الانتحار) :

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » (النساء ٢٩/٤) .
كما جعل قتل نفس بشرية واحدة كقتل البشرية جمعاء :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس
جميعا ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا » (المائدة ٣٢/٥) .

ومن أبشع جرائم القتل قتل الأولاد خشية الفقر ، كما كان يفعل
المشركون قديما ، وكما يفعله بعض الغربيين والغربيات حديثا عن طريق
الاجهاض . قال تعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان
خطئا كبيرا » (الاسراء ٣١/١٧) .

(١) راجع يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الاسلام

الفواحش : قال تعالى :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (الأنعام ١٥١/٦) •

ومن اخبت الفواحش ارتكاب الزنى ، لما يترتب عليه من آثار مدمرة للجسم والنفس والأسرة والأمة قال تعالى :

« ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢/١٧) •

الكسب الحرام : ويشمل أكل أموال الناس بالباطل بأية صورة من الصور : كأخذ الربا ، وقبول الرشوة ، والحصول على المال عن طريق السرقة ، أو الغش ، أو الابتزاز ، أو الاحتيال ، أو الميسر ، أو التطفيف ، أو الاتجار فى المحرمات كالخمر والمخدرات ونشر الفحشاء بأية وسيلة وبخاصة وسائل الاعلام •

وقد حرم الله كذلك أكل أموال الضعفاء كاليتامى فقال تعالى :

« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (النساء ١٠/٤) •

وقد أمر الاسلام بحماية المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال بكل وسائل الحماية حتى بالقتال ، فقال تعالى :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (النساء ٧٥/٤) •

جميع الرذائل التى تؤدى الى الفرقة بين المسلمين : وهى المذكورة فى سورة الحجرات ١١/٤٩ - ١٣ وقد سبقت الاشارة اليها فى الحديث عن حقوق المسلمين •

ومن الآيات المحكمات عن المحرمات قوله تعالى :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون • ولا تقربوا مال اليتيم الا بالئسى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا الا وسعها

وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم
تذكرون • وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه و لا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام ١٥١/٦ - ١٥٣) •

جميع صفات الكافرين والمنافقين : وقد ذكرناها في الحديث عن
شخصيتي الكافر والمنافق • وصفات الكافر باجمال هي : الجحود ،
والياس ، والسبع ، والاسراف ، والترف ، والغرور ، والطغيان ، وموالة
الكافرين ومهاداة المؤمنين ، والمكر السيء ، والعقلية المادية •

وصفات المنافق باجمال هي : الخداع ، والكذب ، والفسق ،
والسفه والتآمر ، وموالة الكفار ، واختلاق الأعذار (العقلية التبريرية)
وجمال الظاهر مع خراب الباطن •

فاذا تحققت صفات الايمان والتقوى في المسلم ، وتجنب صفات
الكفر والنفاق - فانه يكون قد اتبع الصراط المستقيم ، ويكون - باذن
الله - من المهتدين •

الآثار النفسية للاهتداء

يحرر المؤمن بالله ، المهتدى بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - من جملة من الأمراض النفسية والعقلية المنتشرة بين الناس ولا سيما في هذا الزمان ، ومن أخطرها الخوف والحزن ، ويتحقق بسكينة النفس (١) .

التحرر من الخوف :

ان المخاوف التي تهدد الانسان في عصرنا الحاضر كثيرة وحقيقته ومنها خوفه على رزقه وخوفه على حياته وحياة أحبائه ؛ أى خوفه من الموت . وذلك بسبب انتشار البطالة والظلم الاجتماعى وأعمال العنف وخطف الأطفال وغصب النساء والقتل الفردى والجماعى على نطاق لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية .

والايمان الصادق ان لم يبدد هذه المخاوف تماما فهو يخفف من حدة آثارها النفسية الى حد كبير .

وذلك لأن المؤمن وقد تحرر من هذه الجرائم فانه يتحرر من آثارها المدمرة وعواقبها الوخيمة . وهو كذلك يشغل نفسه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة الايمان ، والذى يعد من أهم العوامل فى تحقيق الحياة الطيبة كما قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة » (النحل ٩٧/١٦) .

والأعمال الصالحة تستغرق وقت المؤمن وجهده ، وتبعده عن الفراغ الروحى والعقل الذى يشيع الخوف والقلق والتوتر فى نفوس الكثير من الناس ، ولا سيما فى نفوس الشباب الغربى كما يتضح ذلك فى سلوكهم

(١) راجع . أحمد عبد الحميد غراب : الاسلام فى الحياة اليومية (بالانجليزية) فصل

« سلام النفس » ص ٩٦ .

الذى كثيرا ما يتخذ أساليب العنف والتخريب وسيلة للتعبير عن نفسه .
ومن المعروف أن الطاقات الانسانية اذا لم تجد لها متنفسا فى الأعمال
الصالحة فستجد ذلك لا محالة فى « أنشـطة » الفساد والانحلال
والتخريب .

ومن أهم الأعمال التى يحرص المؤمن على أدائها واتقانها عمله الذى
يكسب به رزقه . فهو يتخصص فيه ، ويتقنه ، كما قال الرسول صلى الله
عليه وسلم :

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » (البيهقى) .

ومع أخذ المؤمن بالأسباب فى العمل والكسب فهو دائما يتوكل
على خالق الأسباب والمسببات جميعا . ويوقن أن عمله ورزقه وأجله بيد
الله وحده ، وكذلك أعمال الناس وأرزاقهم وآجالهم ؛ ومن ثم لا يهلع عند
المصيبة ، ولا يجزع عند الشدة ، ولا ييأس من رحمة الله كما قال تعالى :

« ولا تياسوا من روح الله انه لا يياس من روح الله الا القوم
الكافرون » (يوسف ٨٧/١٢) .

والمؤمن لا يتمنى الموت ، ولكنه لا يخافه ؛ لأنه يوقن بأنه قدر الله
على عباده :

« نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » (الواقعة ٦٠/٥٦) .

كما يوقن بأن ما بعد الموت خير وأبقى للمؤمن الذى عمل الصالحات ،
وقدم بها لغد ، حيث يرجو لقاء الله ورحمته وثوابه على ما قدم ، وعندئذ
لا يخاف ولا يحزن ؛ لأن الله تعالى يقول للمتقين فى ذلك اليوم :

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » (الزخرف ٦٨/٤٣)

كما يقول تبارك وتعالى عن المؤمن الصالح :

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما »

(طه ١١٢/٢٠)

وهذا الايمان الذى لا يهاب الموت هو الذى يملأ نفس المؤمن بالعزة
فى الدنيا ، ويخلصه من الذلة لغير الله ، أى الذلة للناس ولا سيما أصحاب
السلطة والثروة وهو الذى يمكن المؤمن من أن يجهر بكلمة الحق فى وجوه
الطغاة والظالمين والفاستدين مهما أوتوا من قوة . وبهذه الروح استطاعت

قلة مؤمنة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تهزم كثرة كافرة ، بل وأن تغير وجه العالم من وجه كالح بالكفر الى وجه أخذ ينتشر فيه نور الايمان : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » (آل عمران ١٣/٣) .

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »
(البقرة ٢٤٩/٢) .

ولا شك أن عقيدة التوحيد لها أثر عميق فى تبديد القلق وبحقيق السلام الداخلى فى نفس المؤمن ، وذلك لأن الايمان بالله الواحد الأحد يحفظ النفس الانسانية من التمزق بين ولاءات كثيرة لآلهة متعددة كما يصون أخلاق الانسان من التذبذب والنفاق ، الذى ينشأ عن خوفه من قوى كثيرة متعارضة ، ومحاولته ارضاءها جميعا . ولهذا يتمتع الموحد الصادق بسلام داخلى ولا يتمتع به الكافر والمنافق لأنه يتخذ الله وحده وليا فلا يوزع ولاءه بين أولياء كثيرين ، ولا يبدد طاقاته فى طاعة أرباب متفرقين :

« قل أعير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض » (الأنعام ١٤/٦) .

« أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » (يوسف ٣٩/١٢) .

وهذا يشبه تبديد طاقات المسلمين اليوم فى ظل نظم غير اسلامية يتنازعهم فيها ولاءان : الولاء لله والولاء للنظام الكافر الذى يعتبر عدم الولاء له خيانة عظمى .

كما يفرض على المسلم أن يفصل بين دينه وحياته : فيطبق بعض دينه فى بعض شئون حياته فى البيت والمسجد ولكنه يطبق القوانين الوضعية فى معظم شئونه الأخرى : فى عمله وعلاقاته الاجتماعية ومعاملاته المالية وتربية أولاده . وهذا الانقسام يبدد طاقات المسلم ويملؤه بالتوترات لأنه يوزع ولاءه بين الله والبشر ، ويحدث فجوة هائلة بين ما يعتقد وما يفعل .

وهناك عامل آخر من أهم العوامل فى تبديد الخوف واشاعة الأمن فى نفس المؤمن ، وهو أنه - لخوفه من الله والتزامه بهدى الكتاب والسنة - يحرص دائما على أن يتجنب الظلم مهما كان يسيرا ، فلا يظلم أحدا من الناس ولا سيما الضعفاء الذين يتجرأ الناس عادة على ظلمهم : كالفقراء واليتامى والنساء والغرباء ، بل يعاملهم جميعا بالعدل والاحسان ، وهذا

السلوك اذا قصد به وجه الله تعالى نشأ عنه عادة تجاوب الناس بحب العادل المحسن ، وهذا الحب هو أحد العوامل التي تشعره بالأمن :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (الأنعام ٨٢/٦)

ولكن هناك ما هو أجمل من الشعور بالأمن ، وهو الشعور بالرضى :
أى رضى العبد المؤمن بهدى مولاه ، والرضى بهداه يستلزم الرضى بقضائه ،
فيتقبل العبد كل ما يجرى له أو عليه فى هذه الدنيا بنفس « مطمئنة »
بالإيمان ، فتصبح بهذا الايمان « راضية » بالهدى والقضاء ، وتصير بهذا
الرضى « مرضية » عند الله :

« يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية »
(الفجر ٢٧/٨٩ - ٢٨) .

وبهذا يتحقق الرضى المتبادل بين العبد وربّه كما قال الله تعالى :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (البينة ٨/٩٨) .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون موقف المؤمن
من البلاء فقال :

« ان عظم الجزاء من عظم البلاء ، وان الله اذا أحب قوما ابتلاهم ،
فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » (الترمذى) .

أما الظالم للناس ، المضيع لحقوقهم ، المنتهك لحرمتهم ، الباغى عليهم
فلا يمكن أن يشعر بالأمن فضلا عن الرضى ، لأنه دائما يتوجس خيفة
ممن ظلمهم ، ويتوقع انتقامهم مهما كانوا ضعفاء ، وهم غالبا ما ينتقمون
منه على الأقل ببغضهم اياه ، وتمنيهم ما يكرهه . ولهذا لا يشعر بأنه
محاط بمن يحبه بل بمن يبغضه ويتربص به . وهو بظلمه قد سلك
سلوك من لم يرض بهدى الله ولا بقضائه ، لأن الله حرم الظلم وقدر
الرزق . ومن ثم فالظالم ساخط ومسخوط عليه قى الدنيا والآخرة .

فاذا اجتمع عليه سخط نفسه ، وسخط الله والناس ، فكيف يشعر
بالأمن ؟

التحرر من الحزن :

إذا كان الخوف يتعلق بالقلق على المستقبل فالحزن يتعلق بالقلق على الماضي ، وكلاهما ينبع من تقدير الانسان للحياة الدنيا فوق قدرها والاغترار بها ، والحرص عليها ، مهما بلغت من القبح والذل والانحطاط * والحضارة المادية فى هذا الزمان قد غالت فى قدر المتاع المادى الدنيوى مغالة تؤدى ببعض الناس - عند فقد هذا المتاع - ليس الى الحزن عليه فحسب بل الى الجنون والانحجار *

وهدى الاسلح يكبح جماح هذه المغالة فى تقدير الحياة الدنيا ، ويضعها موضعها الصحيح فى ميزان الايمان *

فالمؤمن يأخذ بأسبابها ، ويتمنع بطيباتها ، ولكنه يوقن بأن الحياة نعمة قد تفضل الله بها عليه ، وهبة يستردها أنى شاء منه ، ولذلك يشعر شعورا عميقا بالتسليم لله والرضى بقضائه ، والشكر له على ما أعطى وعلى ما أخذ وكذلك يوقن المؤمن أن حياته - وهى محدودة بأجل مسمى انما هى فرصة مؤقتة هيئت له فيها أسباب العمل (على قدر طاقته) لحياة أخرى أبقى وأكمل *

وبهذا الميزان الدقيق لا يأسى المؤمن على ما فقد ولا يبطر بما وجد :

« لَكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (الحديد ٢٣/٥٧)

وما سبق عن الخوف والحزن هو مصداق قول الله تبارك وتعالى :

« فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٣٨/٢)

نموذج الهادى المهتدى الكامل

صلى الله عليه وسلم

الربى الحكيم والرفوف الرحيم :

ترتبط الحكمة بالرحمة فى شخصية الرسول (١) صلى الله عليه وسلم ارتباطا وثيقا يظهر فى تربيته للمؤمنين . وقد من الله عليهم بهذه التربية ، اذ تمثلت فيها رحمة الله الواسعة بهم ، فقد أخرجهم بها من الضلال الى الهدى ومن الظلمات الى النور :

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران ١٦٤/٣) .

« هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » . (الجمعة ٦٢/٢ - ٣) .

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » (الأعراف ١٥٦/٧ - ١٥٧) .

(١) نقتصر من جوانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم - وهى جوانب متعددة - على أمسها بموضوعنا ، وهى الجوانب التى نرجو من وراء عرضها مقاومة التيار المادى الذى يكتسح العالم الاسلامى اليوم ويكتسح شخصية المسلم .

وراجع الفزالى : الاحياء (كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة) ٩٦/٧ - ١٥٧ .

ر د . كمال محمد عيسى . خصائص مدرسة النبوة .

ر محمد نطب : قبسات من الرسول .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . (التوبة ١٢٨/٩) .

« فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .
(آل عمران ١٥٩/٣) .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء ١٠٧/٢١) .

فهذه الآيات نصف مختلف المهام التى كان يقوم بها الرسول صلى الله عليه وسلم ليربى أصحابه : وهى تشمل تلاوة القرآن عليهم ، وتعليمه لهم ، وتزكية نفوسهم بهذه التلاوة وهذا التعليم ، ثم تربيتهم بالقدوة العملية عن طريق سنته الشريفة وفيها تتمثل الحكمة والرحمة معا .

ولم يكتف بتلاوة الكتاب وتعليمه ، بل التزم به وطبقه على نفسه وأهله أولا ، ثم ألزم المؤمنين - وقد تعلموه - أن يطبقوه كذلك . ومن ثم كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . وبهذا حرر نفوسهم من عبودية العباد ، وحرر حياتهم من أغلال الجاهلية وأوزارها وقادهم الى حياة اسلامية سمحة طيبة .

ومن أهم مظاهر رحمته وحكمته فى تربية الناس :

انه بذل كل وسعه وسخر كل طاقاته لخراجهم من ضلالهم وهدايتهم الى الصراط المستقيم :

ومن أجل هذا قضى مدة بعثته لها ، وقد لقي خلالها من المصائب والأهوال ما لا يحتمله الا ذوو العزم من الرسل . وقد صبر عليها جميعا : صبر على الاغراء ، كما صبر على الايذاء والاستهزاء ، وعلى الجوع والضرب ، وعلى المقاطعة والحصار ، وعلى اتهامه بالسحر والجنون ، ومحاولة قتله ، وخراجة وصحبه من ديارهم وأخذ أموالهم بغر حق ، وافتراء الافك على أهله ، وتحالف المشركين واليهود والمنافقين على حربه .

وليس فى طاقة بشر أن يصبر على ذلك أو بعضه الا اذا كانت شخصيته قد جمعت بتأييد الله تعالى كل صفات الحكمة والرحمة :

« والله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام ١٢٤/٦) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يهلك نفسه أسى وغما لكفر قومه :

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (الشعراء ٣/٢٦) .

ولذلك كان يواجه أذاهم لا بالرغبة في الانتقام منهم ، بل بالعفو عنهم ، والدعاء لهم ؛ فقد عفا عن الأعراب الأجلاف ممن أساءوا إليه ، وعفا عن المرأة اليهودية التي أرادت قتله يشاة مسمومة ، وعفا عن أعدائه بعد انتصاره عليهم في فتح مكة وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن المعروف أنه قبل فتح مكة كثيرا ما آذاه قومه وأمعنوا في أيدائه ، ومع ذلك كان يدعو لهم بالهداية والغفران ،

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

« كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَّ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (الشيخان) .

ويكفي في الدلالة على كريم عفوه وعظيم حلمه أنه نجح في سببه شعب أنوف كالعرب لم يتعود الطاعة والخضوع .

انه تجنب الترف وعاش حياة بسيطة زاهدة :

لقد واجه الجاهلية وضلالها وقيمها المادية وتفاخرها بالأنساب وتكاثرها في الأموال والأولاد ، وحياتها المترفة الفاسقة ، بقيم القرآن الكريم :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالشيء تقرّبكم عندنا زلفى » (سبأ ٣٤/٣٧) .

فعاش حياة بسيطة خشنة زاهدة :

كان عزوفا عن متاع الحياة الدنيا وترفها ، قانعا بالقليل غنيا بالله عما في أيدي الناس . وقد فشخ الله عليه بلاد العرب ، وأفاء عليه من الأرض والأموال والغنائم ما كان يكفي أن يجعله من أغنى الأغنياء في عصره أو أراد ، ولكنه آثر دائما أن يفرقه على الفقراء ويعيش واحدا منهم .

لم يأكل على خوان قط ، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات ، ولم يشبع من خبز الشعير أو القمح ثلاثة أيام متتالية ، وكان يمر الشهر والشهران على أهله لا يوقدون نارا ، أى لا يطبخون لحما ، وكان ينام على حصير تؤثر في جنبه الشريف ، وكان في بيته يساعد أهله ، يغلب الشاة ،

أو يرقع الثوب ، أو يخصف النعل . فعاش فقيرا ومات فقيرا (١) .

عن عمرو بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنهما : « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وببلاحه » ورأضا جعلها لابن السبيل صدقة . (البخارى) .

كان المثل الأعلى فى الكرم ، فكان أجود الناس ، وكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ولا ينزعبه المال ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم » . (رواه البخارى) .

والى انفاقه الكريم على الفقراء والمساكين كان يعودهم ويجالسهم ويؤاكلهم ويحدث المسلمين على دعوتهم إلى الطعام فيقول صلى الله عليه وسلم :

« بئس الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء » .
الشيخان () .

رحمته بالضعفاء :

كان صلى الله عليه وسلم رحيفا بالمؤمنين جميعا ، ولا سيما بالضعفاء (٢) منهم كالأيتام والفقراء والأرقاء والنساء والأطفال : وقد شارك هؤلاء جميعا مشاعرهم ، وأحس آلامهم بل وعاش حياتهم . نشأ يتيما وأحس مرارة اليتيم والحرمان من عطف الوالدين . كما نشأ فقيرا ، ولم يرث مالا ، وكان وهو صبي يرعى الغنم لأهلها فى مكة بأجر قليل .

(البخارى)

وأدرك لؤم الناس فى معاملة الأيتام والفقراء بسبب جشعهم على الدنيا وجشعهم للمال من قوله تعالى :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتاكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » (الفجر ١٧/٨٩ - ٢٠٠) .

(١) راجع التوى : رياض الصالحين ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٢) راجع التوى : السابق ص ١٥٢ ، ٢٩٣ وما بعدها .

فكان يكرم اليتيم ويدعو الى اكرامه ويقول : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » ويشير الى السبابة والوسطى (مسلم) .
وقضى طفولته وصباه وشبابه ثم كهولته بعد البعث فى صحبة
الاماء والعبيد (١) ثوية ، وحليمة ، وبركة أم أيمن ، وزيد بن حارثة ،
وأسماء بن زيد ؛ وميسرة ؛ وبلال وسمية ؛ وياسر ؛ وعمار ؛ وسلمان ؛
وصهيب ، والخباب .

وتحقيقا لمبدأ الاسلام فى المساواة بين البشر كان يؤاخى بين الموالى
والأحرار : فأخى بين بلال وخاله بن رويحة الخثعمي ، وبين زيد بن حارثة
وعمه حمزة ، وبين خارجة بن زيد وأبى بكر ، وكانت هذه المؤاخاة صلة
حقيقية تعدل صلة الرحم بل تفوقها .

وتحريضا منه على تحرير الرقيق أعتق كل من كان عنده من
الأرقاء ، وكان أبو بكر ينفق أموالا طائلة فى شراء العبيد وتحريرهم أسوة
بالرسول صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« من أعتق رقبة استنقذ الله بكل عضو منها عضوا منه من النار ،
(متفق عليه) وقال : « من قتل عبده قتلناه ؛ ومن جدد عبده جددناه ؛
ومن أخصى عبده أخصيناه » (الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى)
واستنادا على هذه المساواة رأى أبو هريرة رجلا يركب دابة وخلفه
عبد يجرى فصاح به : يا عبد الله احمله خلفك ، انما هو أخوك . روى
مثل روحك .

وعن الاماء قال صلى الله عليه وسلم :

« من كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ،
ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » (متفق عليه) وكانت الأمة من أهل
المدينة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنتطلق به حيث شاءت (البخارى) .
كان لبنى مقرر أمة خادمة فلطمها احدهم فبلغ ذلك رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأمرهم أن يعتقوها . (مسلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من ضرب غلاما له أو لطمه فان كفرته
أن يعتقه » (مسلم) .

وقال عن الموالى والخدم : « هم اخوانكم . . فمن كان أخوه تحت يده
فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم
فأعينوهم » (متفق عليه) .

(١) عن معاملته (ص) للردىق راجع . محمد نطب : شبهات حول الاسلام ص ٣٧ .

محمد شوكت التونى : محمد محرر العبيد ص ١٠٢ .

أما عن النساء فكثيرا ما أوصى بهن خيرا وقال « خيركم خيركم لأهله » ، و « خياركم خياركم لنسائهم » . وأوصى بالنساء خيرا في آخر خطبة وهي خطبة الوداع ؛ ودعا الى تربيتهن وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ولما سمع أن عليا رضى الله عنه يفكر فى الزواج على فاطمة رضى الله عنها قال : « ان فاطمة بضعة مني ؛ يربني ما أربها ؛ ويؤذني ما أذاها » (أخرجه الخمسة الا النسائي) .

وكان من أهم دروس التربية لنسائه - وللنساء المسلمات جميعا - أن يبين لهن أن إكرام الرجل للمرأة لا يعنى أن يهيىء لها حياة الترف والبلذخ . فقد خير نساءه - كما أمره ربه - بين حياة التقشف معه ؛ أو حياة الترف بذونه ؛

« يا أيها النبی قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالین امتعکن وأسرحکن سراحا جمیلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظیما » (الأحزاب ۲۸/۲۹) .

والترف - بكل مظاهره المادية - لا يعتبر فى الاسلام أسلوبا مقبولا لتكريم الانسان رجلا كان أو امرأة ، بل هو فى حقیقته أهانة للانسان ، لأنه « نكريم لجسده وشهواته على حساب روحه وتقواه ، وهو يؤدي الى قسوة القلب وغفلته عن ذكر الله ، كما يؤدي الى تبلك الاحساس ، ولا سيما بالنسبة لآلام الفقراء والمستضعفين . ولذلك يؤكد لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المظاهر المادية ليست هى المقاييس الحقيقية لتكريم الانسان فى الاسلام :

« ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم نفسه وهو لها مهين ؛ ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » .

« انه لياتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » (متفق عليه) .

« رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » (مسلم)

« ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » (مسلم) .

أما حبه للأطفال فيقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « ما رأيت أحدا كان أزحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » (مسلم) .

وكان ابنه إبراهيم مسترضعا في عوالي المدينة فكان ينطلق ويدخل البيت الذي كان فيه ؛ فيأخذه فيقبله ثم يرجع (مسلم) .

وكان يركب الحسن والحسين رضي الله عنهما على ظهره ويمشي علي أربع ويقول : « نعم الجمل جملكما ونعم العجلان أنتما » (الطبراني) .

وكان يسجد فيأتى الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبي الله أطلت السجود . فيقول : « ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله » (أبو يعلى) .

وخرج علي أصحابه ومعه امامة بنت أبي العاص (أى بنت بنته) علي عاتقه فصلى ، فاذا ركع وضعها ، واذا رفع رفعها (البخارى) .

وقبل الحسن رضي الله عنه فقال له الاقرع بن حابس : « لقد ولد لي عشر ما قبلت واحدا منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » (الطبراني) .

وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته لما يعلمه من وجد أمه عليه (الشيخان) .

وأرسلت اليه صلى الله عليه وسلم إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيها لها في الموت فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى . فلتصبر ولتحتسب . فعاد الرسول فقال : أنها قد أقسمت لتأتينها فذهب النبي اليها ومعه بعض أصحابه فرفع اليه الصبي في حالة النزاع . ففاضت عيناه فقال له سعد ابن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، (أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه) .

كان صلى الله عليه وسلم — كما وصفته السيدة خديجة — رضي الله عنها — رحيفا بالضعفاء من كل نوع ، فكان يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الدهر .

ولم تكن رحمته بالضعفاء انفعالا عاطفيا ، وإنما كان مثلهجا ربانيا يبنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة أفرادها « يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٨١/٧) .

جاء اليه أعرابي يتقاضاه ديناً فاشتد عليه ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك أتدري من تكلم ؟ فقال الأعرابي : انى أطلب حقى . فقال صلى الله

عليه وسلم : « هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ » ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فاقترض منها تمرا فقضى منه دين الأعرابي وأطعمه ، فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أولئك خيار الناس ، لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » (ابن ماجة) . ولذلك فقد حفل المنهج الرباني الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتشريعات التي تهدف إلى حماية الضعفاء . بتشريعات الأسرة تهدف في كثير من جوانبها إلى حماية النساء واليتامى والأطفال ، وتشريعات المكاتب والتدبير والاستيلاء والظاهر وعفوبة القتل الخطأ وكفارة اليمين تهدف كلها إلى تحرير الرقيق ، وتجريم الربا والاحتكار تهدف إلى حماية المدينين والفقراء والمستضعفين ومن أجل الضعفاء شرعت الزكاة وشرع الاتفاق بل ومن أجل الضعفاء شرع القتال .

« ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » (النساء ٧٥/٤) .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (الحج ٣٩/٢٢ - ٤٠) .

الربى الحكيم يحطم أغلال الكفر

أغلال الكفر كثيرة وثقيلة ، تخنق النفس البشرية ؛ وتحيل الانسانية إلى شعاع . وشر هذه الأغلال هي الأغلال النفسية :

تأليه البشر : أى عبادة العباد ، أو عبادة الانسان نفسه وهواه .

عبادة المادة : أى حب الدنيا ومتاعها المادى حبا يجعلها غاية في ذاتها ولا وسيلة إلى الآخرة ، فيتهالك الانسان عليها ، فينسى نفسه وربّه ، ويغفل عن لقاء الله والمسئولية أمامه يوم الحساب .

التعصب للقبيلة أو الشعب أو القوم أو الوطن أو الجنس أو تقاليد المجتمع أى تقاليد الآباء والأجداد ، مع ظهور ضلالها وانحرافها .

السلوك الكافر في الحياة : وينبع هذا السلوك من أخلاق كافرة ، على رأسها : الجحود بنعم الله ولا سيما نعمة هداه ، والجهل ، والغرور ، والطغيان ؛ (ويشمل كل أنواع الظلم) ؛ والشح بالمال على المحتاجين ؛ والترف ؛ والفسق ؛ والفساد فى الأرض ؛ وموالة الكفار ومعاداة المؤمنين .

وقد عصم الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من كل هذه الصفات،
وحررت نفسه من كل هذه الأغلال . وإلى ذلك جمع في شخصيته كل
صفات المهتدى الكامل ، فكان الأسوة الحسنة لجميع المؤمنين المتقين .
وذلك لأن الله رباه على هداه كما قال صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربي
فأحسن تأديبي » فكان - كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها :
« خلقه القرآن » ، ولذلك قال الله له : « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم
٦٨/٤) .

وعلى هدى القرآن ربي النبي أصحابه : فأنشأ خير جيل . وعلى
هدى القرآن رببت أجيال أخرى متتالية حتى اليوم : « وآخرين لم يلحقوا
بهم » . وبهذه التربية وجدت « خير أمة أخرجت للناس » . يقول الله
تعالى لنبيه (ص) :

« وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل
الله عليك عظيماً » (النساء ١١٣/٤) .

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا
الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى
صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى
الله تصير الأمور » (الشورى ٤٢/٥٢ - ٥٣) .

وقد ربي النبي أصحابه والأجيال التى لم تلحق بهم تربية حطمت
أغلال الكفر فى نفوسهم أولاً ، فأدى ذلك الى تحطيم أغلال الكفر فى حياتهم
ومجتمعاتهم .

لقد غير نفوسهم من الداخل ، فمحا منها ذل العبودية لغير الله ، وملاها
عزة بالله ورسوله والمؤمنين ؛ وهذا هو التحرير الحقيقي للعبيد : تحرير
نفوسهم الذى أدى الى تحرير رقابهم من الرق ؛ وتحرير حياتهم من
الطغيان .

ونجد هذا واضحاً فى الفروق الهائلة بين نفسية أصحابه قبل
الاسلام وبعده . ولا سيما فى شخصيات الضعفاء والفقراء والعبيد والاماء .
لقد كانوا أذلاء مستضعفين . وكانوا يشعرون أنهم أذلاء مستضعفون ،
ولكنهم بعد الايمان تحرروا من هذا الشعور فحرروا أنفسهم وحرروا
غيرهم من أغلال الكفر وعبودية العباد :

« واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم
الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورثكم من الطيبات لعلمكم تشكرون »

(الأنفال ٢٦/٨)

وهذا ينطبق على أجيال أخرى كثيرة تالية : أجيال ورثة الأنبياء
والمجاهدين والشهداء الذين سقطوا وهم يقاتلون قوى الكفر في كل
مكان . أولئك الذين أسقطوا الامبراطوريات ، وثلوا عروش الطغاة ،
وصدوا جيوش التتار والصليبيين ، وقاوموا الاستعمار الغربي الكافر في
أفريقيا وآسيا ، ومازالوا يقاومون الزحف الصليبي - اليهودي - الشيوعي
المتآمر على الاسلام والمسلمين تحت أسماء عديدة ، وعناوين مختلفة ، ولكنه
في حقيقته مؤامرة واحدة ، لأن الكفر كله ملة واحدة .

وهذه الاجيال المتعاقبة من المسلمين تحطم أغلال الكفر بدرجات
متفاوتة بقدر ما في قلوبها من جذوة النور المقدس التي وضعها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليس فقط في قلوب أصحابه ، بل وكذلك في قلوب
« آخرين لما يلحقوا بهم » :

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في
الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا » (النور
٥٥/٢٤) .

« الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » (الحج ٤١/٢٢) .

٤ - شخصية الضال

الانسان الضال بوجه عام هو كل انسان لا يؤمن ولا يعمل بهدى الله ،
أى لا يتبع الاسلام .

فاذا كان عدم الاتباع ناشئا عن تعمد ، وبعد علم بالاسلام وتبين
له . أو امكانية العلم والتبين - فالانسان ضال كافر .

واذا كان عدم الاتباع ناشئا عن جهل غير متعمد بالاسلام أو عن
اكراه - فالانسان ضال غير كافر .

ونبدأ ببيان الأول فنقول :

الانسان الضال الكافر هو من لا يؤمن ولا يعمل بهدى الله . بعد أن
تبين له أنه الهدى ، أى يرفض الاسلام بعد علم وعن اختيار وتعمد ،
فلا يرضى به ديننا ، ولا بالله ربا ، ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا
ورسولا . يقول الله تعالى :

١ - « ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى
الشیطان سول لهم وأملی لهم » (محمد ٢٥/٤٧) .

٢ - « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير
سبیل المؤمنین نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصیرا » (النساء
١١٥/٤) .

٣ - « وما كان الله لیضل قوما بعد اذ هداهم حتی یبین لهم
ما یتقون » (التوبة ١١٥/٩) .

٤ - « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٥/١٧) .

٥ - « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
الرسال » (النساء ١٦٥/٤) .

٦ - « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين : ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » (الأنعام ١٣٠/٦ - ١٣١) .

٧ - « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (البقرة ٢/٢٥٦)

فهذه الآيات - وكثير غيرها - تدل بوضوح على أن الضال عن هدى الله يعتبر كافرا اذا تحقق فيه شرطان :

١ - عنصر الاختيار : أي أنه فضل الضلال على الهدى بمحض اختياره وارادته ، وبدون اكراه .

٢ - عنصر التبين : أي أن الهدى قد بين له بيانا كافيا حتى تبين له . ولم يعد لديه عذر في الاحتجاج بجهله به .

ويندرج تحت الضال الكافر الشخصيات التالية :

١ - المشرك :

وهو من يتخذ مع الله الها آخر أو الهة أخرى . قال تعالى :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١١٦/٤) .

٢ - الملحّد :

وهو من لا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ أي ينكر وجود الله كما ينكر الوحي والرسالة والبعث والجزاء . قال تعالى :

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١٣٦/٤) .

ويشمل في العصر الحاضر الشيوعيين والوجوديين والعلمانيين ، وكثيرا ممن يسمون في الغرب فلاسفة ومفكرين وعلماء .

الشخصية الانسانية - ١١٣

٣ الكتابى :

وهو المنتمى الى اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وهم جميعا يكفرون بالاسلام . قال تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (آل عمران ٨٥/٣) .

وقال تعالى عن اليهود :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (البقرة ٨٩/٢) .

وقال تعالى عن النصارى :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم » - « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (المائدة ٧٢/٥ ، ٧٣) .

٤ - المرتد :

وهو المسلم الذى خلع ربه الاسلام من عنقه وبدل ايمانه كفرا . قال تعالى :

« ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » (البقرة ١٠٨/٢) .

٥ - المنافق :

وهو من يظهر الايمان ويبطن الكفر . قال تعالى :

« ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » (النساء ١٤٠/٤) .

ولكل شخصية من هذه الشخصيات صفات وخصائص معينة تميزها عن غيرها ولكنها جميعا تشترك فى صفات وخصائص عامة تجمعها . ومجموع هذه الصفات والخصائص ، أى اجتماعها فى انسان ، هو ما يكون الشخصية الضالة الكافرة ، أو شخصية الكافر .

وفيما يلى نبين هذه الصفات العامة لشخصية الكافر .

شخصية الضال الكافر

فى القرآن صفات كثيرة تميز شخصية الكافر وأهمها ما يلى :

١ - الجحود

وهو انكار النعمة وعدم الاعتراف بفضل المنعم ، ومن ثم عدم القيام بشكره . والكافر يجحد كل نعم الله عليه ، وهى تندرج تحت نوعين :

(أ) نعمة الهدى :

وهى أجل النعم ، فهو يكفر بمصدر الهدى وهو الله تعالى ، فينكر وجوده أو يتخذ له ندا ، كما يكفر بقاء الله وباليوم الآخر وكذلك يكفر بالهدى نفسه ، فينكر الوحي والرسالة ، ويكذب بآيات الله فى القرآن والكون ويعرض عنها وعن دلائلها ، فلا يتخذ منها هاديا يهديه للإيمان والعمل الصالح .

وقد وردت آيات كثيرة تشير الى جحود الكافرين لهذه النعمة وان ذلك من أهم أسباب ضلالهم ، ومن أجله سموا كافرين . ومن هذه الآيات قوله تعالى :

« وما يجحد بآياتنا الا الكافرون » (العنكبوت ٢٩/٤٧) .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١٣٦/٤) .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة ٥/٤٤) .

« قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٣٨/٢ - ٣٩) .

« ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وان

يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الفنى يتخذوه سبيلا ذاك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (الأعراف ١٤٦/٧ - ١٤٧) •

« وكأين من آية فى السموات والأرض يهرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف ١٢/١٠٥) •

(ب) النعم الأخرى :

ولا سيما خلق الانسان فى أحسن صورة ، ورزقه من الطيبات ، وتكريمه بالاسنخلاف فى الأرض وتسخير الكون - وهى نعم لا تحصى كما قال تعالى :

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠/٣١) •

« وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار » (ابراهيم ٣٤/١٤) •

ولا شك أن الكافر يجحد أيضا هذه النعم كلها ، لأنه يجحد المنعم بها ، ولا يعترف بفضلها ، فلا يعبدته أو لا يفرده بالعبادة •

وفى معرض تعداد النعم على الناس يشير القرآن الكريم الى جحود الكفار لهذه النعم :

« أفتالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون • ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون » (النحل ٧٢/١٦ - ٧٣) •

« أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم • أفتالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » (العنكبوت ٦٧/٢٩) •

وفى حوار قرآنى رائع نجد الفقير ينكر على صاحبه الغنى ذى الجنتين أنه كفر بالله وأنه كفر بنعمه وبطرها :

« قال له صاحبه وهو يحاوره : اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا • لكننا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » (الكهف ٣٧/١٨ - ٣٨) •

ولا شك أن الجحود صفة قبيحة عند العاقل ، تشمئز منها الفطرة الإسلامية ويستطيع الانسان أن يدرك قبح هذه الصفة من نفور الناس بفطرتهم من الجاحد وحكمهم على شخصيته بالانحطاط الخلقى . وهناك تشابه واضح بين سلوك الجاحد وسلوك الحيوان ؛ فكلاهما رغم حاجته الشديدة الى النعمة ينسى فضل المنعم ؛ بل ويتنكر له ؛ ويسىء اليه ؛ فكأنه كلب عقور يعض اليد التي تطعمه . ومن ثم شبه الله تعالى الكفار بالأنعام لأنهم يتمنعون بالنعمة ولا يشكرون المنعم :

« يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (محمد ١٢/٤٧) .

واذا كان قبيحا بالانسان أن يجحد نعمة انسان آخر أو أناس آخرين عليه - وهذه النعمة مهما عظمت فلن نتجاوز نطاق « المعونة البشرية » المحدودة بحدود الزمان والمكان والضعف البشرى - فكيف بمن يجحد نعم خالقه ورازقه وهاديه ؟

وخلق الجحود ينم عن لؤم الشخصية وخسنة الطبع لأنه يجمع بين الكذب والغدر والظلم :

أما أنه كذب فلأن المنفضل قدم بالفعل خيرا للمتفضل عليه ؛ فانكار هذا الخير كذب صريح .

وأما أنه غدر فلأنه قابل الاحسان بالاساءة ، وهذا ما تنفر منه الفطر السليمة ؛ وتشمئز الطباع المستقيمة :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن ٦٠/٥٥) .

وأما أنه ظلم فلأنه بخس للحق .

واذا انتشر هذا الخلق الدنيء بين الناس في أى مجتمع فلا شك أن مصيره - عاجلا أو آجلا - الى الحراب والابھيار .

ففى مثل هذا المجتمع الجحود لن يعرف لذى حق حقه ، ولا لذى فضل فضله . فلن يفدر لعالم علمه ، ولا لمصلح اصلاحه ، ولا لمنجز فى أى ميدان انجازاته . وعندئذ يستوى الحبيب والطيب ، بل فى الواقع يفضل الحبيث ، لأن مجرد جحود العمل الطيب معناه تفضيل الحبيث ، والتشجيع على انتشاره .

ومن هنا تنقبض معظم الصدور عن فعل الخير ، وتمسك الأيدي عن

العطاء . ويحجم الكثيرون عن العمل الصالح ، ويصبح القابض على دينه -
أى الملنزم بالايمان والعمل الصالح - كالقابض على الجمر .

وهذا الموقف المخزى هو الذى يتكرر فى كل المجتمعات الاسلامية
المعاصرة تقريبا . فبينما نجد المجتمعات الكافرة تقدر علماءها وابطالها
بكل الوسائل ، نجد المجتمعات « الاسلامية » تقتلهم حقيقة أو مجازا :
حقبة بسفك دمائهم ، أو مجازا بقتل مواهبهم .

وهذا الجحود من شر انواع الكفر بنعمة الله ؛ لأن مواهب البشر
(ولا سيما مواهب العلم والمعرفة هى من أجل نعم الله عليهم . واستخدامها
فيما خلقت له هو التعبير الوحيد الصحيح عن شكر المنعم تبارك وتعالى .
وقد أخبرنا سبحانه أنه سيعاقب كل من لهم مواهب لا يستخدمونها ،
وطاقات معطلة لا يستفيدون منها ولا يتركون غيرهم يستفيد منها . فبصيرون
بذلك شرا من الحيوانات ، لأن هذه تستخدم غرائزها واحساساتها فيما
يفيدها ويفيد غيرها :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم
أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل
أولئك هم الغافلون » (الأعراف ١٧٩/٧) .

وقد صرح القرآن الكريم بأن الانسان ولد جاهلا ، فأنعم الله عليه
بكل وسائل المعرفة : كالسمع والبصر والعقل ، ليشكر الله عليها
باستخدامها فيما خلقت له :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (النحل ٧٨/١٦) .

٢ - اليأس

من أهم معانى اليأس فى القرآن معنيان :

(أ) اليأس من رحمة الله .

(ب) الجزع عند الشدة .

وبين المعنيين صلة وثيقة ، فالذى لا ايمان له بالله لا يرجو لقاءه ،
ولا يتوقع رحمته ، ولا يتوكل عليه ، ومن ثم لا ينتظر منه سبحانه وتعالى
عونا على المصائب ، ولا مخرجا من الشدائد . فعندما تحل به مصيبة فى

متاع الحياة الدنيا كالمال والولد فانه يجزع جزعا شديدا (وهذا الجزع يؤدي ببعض الكافرين الى الجنون أو الانتحار) ، وذلك لأنه يقدر متاع الحياة الدنيا فوق قدره ، ويبالغ في قيمته ، ومن ثم يجزع على فقدته أشد الجزع .

وهو لكفره بالآخرة نصبح العاجلة أكبر همه ، بل كل همه ، وما يحدث فيها يعد بالنسبة اليه نهاية المطاف . ولكفره بالله يشعر أنه عند الشدائد يقف وحده ، وهو كذلك لأنه تخلى عن الله فتخلى الله عنه يقول الله تعالى :

« والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يشموا من رحمتي » (العنكبوت ٢٣/٢٩) .

« انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (يوسف ٨٧/١٢) .

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » (الحجر ٥٦/١٥)

وهناك أيضا علاقة وثيقة بين الجحود واليأس : فنكران نعمة الله دليل على عرور الانسان ، وهذا العرور يعنى جهله بنفسه ، فيظن أنه قوى وهو ضعيف ، وأنه غنى عن الله ، وهو اليه فقير . وهذا العرور بالنفس يدل على عدم الثقة بالله واليأس من رحمته . ومن ثم وردت آيات كثيرة يقتزن فيها وصف الكافر بالجحود واليأس معا ، منها قوله تعالى :

« ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور . الا الذين صبروا وعملوا الصالحات » (هود ٩/١١ - ١١) .

« واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤوسا قل كل يعمل على شاكلته » (الاسراء ٨٣/١٧ - ٨٤) .

والانسان المذكور في الآيتين هو الانسان الكافر ، بدليل استثناء المؤمنين صراحة في الآية الأولى وضمنا في الآية الثانية في قوله تعالى : « كل يعمل على شاكلته » .

٣ - الشح

• وهناك علاقة بين الشح وكفر النعمة .

فالمؤمن يشكر الله ؛ لأنه يوقن بأنه خالقه ورازقه ؛ ويوقن أن رزقه اياه لا يعنى رزقه بالمال فحسب ؛ بل يشمل ما أعطاه وأنعم عليه به من عقل سليم وجسم صحيح يقدر بها على التفكير والحركة ، والعمل والكسب .

كما يوقن المؤمن بأن شكر الله على هذه النعم يوجب عليه الانفاق منها حسب طبيعة كل نعمة (كما سبق من أن الانفاق ليس مقصورا على انفاق المال : فالعالم ينفق علما ، والطبيب علاجا ، كما ينفق الغنى مالا) ، وأن شكر الله على نعمة المال بوجه خاص يوجب عليه الانفاق منه على الفقراء والمحتاجين ، وأن هذا الانفاق ليس تفضلا عليهم ، بل هو حق لهم ، يؤديه اليهم من مال الله الذي آتاه ، وجعله مستخلفا فيه .

أما الكافر فجاحد ، ولذلك لا يقوم بواجب الشكر للمنعم ، ومن ثم لا ينفق مما رزقه الله (ولا سيما من ماله) في سبيل الله بل يشح ويمنع .
يقول الله تعالى :

« ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (المعارج ٧٠ / ١٩ - ٢٥)

فهذه الآيات تبين أن الانسان الضال عن هدى الله يتصف بصفات منها الجزع عند الشدة ، والمنع عند الرخاء وواضح أنه الانسان الكافر ، بدليل استثناء المؤمنين الذين يحافظون على الصلاة ، ويؤدون من أموالهم حقوق الفقراء .

وقد سخر كفار مكة من فكرة الانفاق على الفقراء كما أخبرنا القرآن الكريم :

« واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (يس ٤٧ / ٣٦) .

وكذلك كان منافقو المدينة « لا ينفقون الا وهم كارهون » .

(التوبة ٩ / ٥٤) • بل قاموا بالدعوة الى منع الانفاق على المسلمين ليرغموهم على التخلي عن الاسلام :

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا »
(المنافقون ٧ / ٦٣) •

وكأن أول ما فعله المرتدون أنهم منعوا الزكاة •

وقد اشتهر كثير من الأحرار والرهبان بأكلهم أموال الناس بالباطل •
والتعامل بالربا :

كما قال الله تعالى :

« ان كثيرا من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون
عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله
فبئس ما كسبوا » (التوبة ٩ / ٣٤)
واشتهر اليهود بوجه خاص بـ

« أخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » (النساء
٤ / ١٦١) •

وقصة قارون والمصر الذي لقيه جزاء نسيه أشهر من أن نذكر وهي
مصدق قوله تعالى :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (التحش ٩ / ٥٩) •

٤ - الاسراف

قد يظن بعض الناس أن هناك تناقضا بين وصف الكافر بالشح
والاسراف معا ، والحقيقة أنه لا تناقض •

فالكافر يخل في كل ما ينصل بالانفاق - في سبيل الله وابتغاء
مرضاته - في الوجوه التي حددها الاسلام لتحرير المجتمع الانساني من
الفقر والبرق والحاجة بكل أنواعها • وهي الوجوه المذكورة في آية الصدقات
(التوبة ٩ / ٦٠)

ان الكافر قد ينفق في بعض هذه الوجوه ، كالانفاق على الفقراء مثلا ،
ولكنه لا ينفق عليهم لوجه الله ، بل لدوافع أخرى كثيرة ، قد تكون عنصرية
أو قومية (ككونهم من بنى جنسه أو وطنه) أو سياسية (كمساعدة الغرب

للعالم الثالث !) أو اقتصادية (كخلق طبقة الغارمين في الديون الربوية
في « العالم الثالث » والزعم بأن تقديم الديون الربوية كان لمساعدتها)
أو مزيجاً من هذه الدوافع جميعاً .

وفيما عدا هذه الوجوه فالكافر مسرف في الانفاق ، ولا سيما على
حرب الإسلام والمسلمين والصد عن سبيل الله . ومن المعروف أن كفار هذا
العصر من اليهود والصليبيين والشبوعيين ينفقون أموالاً طائلة لهذا الغرض .
وقد أنبأنا الله تبارك وتعالى بأن هذا الانفاق لن يعود عليهم بسوى الخسران :
« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصعدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم
تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » (الأنفال ٣٦/٨) .

وللاسراف — في القرآن — معان أخرى غير الاسراف في انفاق المال .
فمن معانيه الزيادة على قدر الاعتدال في الطعام الشراب ، مخالفة لقوله
تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الأعراف
٣١/٧) .

والكافر لا شك مسرف في هذا المجال لأنه يتمتع ويأكل كما يأكل
الحيوان ولأنه يأكل ويشرب الحرام ، ولأنه كافر بنعمة الله عليه بالطيبات .
ومن معانيه : المدوامة على ارتكاب المعاصي والذنوب كقوله تعالى :

« يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »
(الزمر ٥٣/٣٩) .

وللؤمن اذ ارتكب منها شيئاً سارع الى التوبة كما قال تعالى :

« والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا
لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »
(آل عمران ١٣٥/٣) .

أما الكافر فيستمر فيها، ويصر عليها لأنه لا يشعر بالندم على ارتكابها،
أو بالحاجة الى طلب غفرانها . ويظل كذلك طول حياته حتى تزهد نفسه
وهو كافر !

ومن أهم معاني الاسراف : الافساد في الأرض ، كما حكاها القرآن
من قول صالح عليه السلام لقومه :

« فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » (الشعراء ٢٦/١٥٠-١٥٢) .

والافساد في الأرض يشمل كل أنواع التخريب المادي والمعنوي للحياة الانسانية ولا سيما : اهلاك الحرث والنسل ، وارتكاب جرائم الظلم والقتل والفتنة عن الدين وقد وصف فرعون بأنه من « المفسدين » لارتكابه هذه الجرائم وذلك في قوله تعالى :

« ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين » (القصص ٢٨/٤) .

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين » (يونس ١٠/٨٣) .

وقد وصف اليهود في القرآن بأنهم « مسرفون » ؛ وذلك لقتلهم النفس وافسادهم في الأرض . (المائدة ٥/٣٢) .

وهذه المعاني كلها تدور حول معنى رئيسي واحد وهو :

الامعان في مخالفة قانون الله في الأمر والنهي ، والحلال والحرام .

٥ - الترف

الترف نوع من الاسراف ، أي مجاوزة قدر الضرورة والحاجة في التمتع بطيبات الحياة الدنيا . والترف لا يعني حب المتاع المادي فحسب ، بل يعني حب التمتع والرفاهية بكل الوسائل التي لا تنأح عادة الا لمن أتاحت لهم وفرة المال مع فراغ الوقت ، وفراغ العقل ، وفراغ الروح ، وموت الضمير .

وتتنوع هذه الوسائل بين وسائل مادية ، كاستعمال الفاخر من الطعام والأثاث والمسكن والملبس والمركب ، ووسائل « ترفيحية » كوسائل التسلية « وقتل الوقت » التي تمثل الثقافة المنحلة للطبقات الغنية في المجتمعات الغربية (وغالبا ما تقلدها عندنا الطبقات الغنية « المسلمة ») من كتب ومجلات وأدب ساقط وأفلام وبرامج تدور غالبا حول الجنس والجريمة ، وتمجد « انجازات » الحضارة المادية الغربية ، متجاهلة دماء قتلاها وأنين ضحاياها في كل مكان الى أسفار ورحلات لا هدف لها سوى

التسلية الرخيصة والمنعة المحرمة أو مجرد « قتل الوقت » الى حفلات تنفق فيها أموال طائلة لمناسبات تافهة غالبا ، بينما يموت الملايين من البشر جوعا ومرضاً وبشرىدا .

ولا شك أن هذا النوع من الحياة يشجع على انتشار الفساد في المجتمع كله فان الترف يشجع على الفسق والفحشاء ، فالترفون لا يقتصرون على التمتع بالطيبات بل يتعدونها الى عمل الخبائث ، واثيان الفواحش ، وارتكاب المحرمات ، ويستعينون على هذا كله بأنواع كثيرة من المخدرات والمسكرات ، التي تؤدي غالبا الى انهيار الجسم والعقل معا .

فكيف يصلح هؤلاء لجهاد ؟ أو علم نافع ؟ أو عمل صالح ؟

ان مجتمعا هذا حال أفراده لا يمكن الا أن يتحلل وينهار ، كما قال الله تعالى :

« واذا أمرنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء ١٦/١٧) .

ان الاسلام حين يحرم الترف بكل أنواعه يبنى المجتمع من شخصيات جادة ، تتجنب الترف والأمراض التي يورثها (كحب الدعة والرخاوة والميوعة وشيوع الفاحشة وتبادل الاحساس وسقوط الهمم) وتتحمل مشقات الأعمال العظيمة الصالحة التي يتطلبها الاسلام .

ولا شك أن احتمال نوع المشقة والحشونة ضروري لتقدم أى مجتمع :

فكبار العلماء اذ يتفرغون للعلم والبحث لا بد أن يعتزلوا حياة اللهو ويحتملوا كثيرا من العناء وبدون هذه الحياة الجادة لا يكون علم ولا علماء .

والدعاة الى الله لا بد أن يوطنوا أنفسهم على حياة الشدائد والمحن. ولا يمكن أن يكون المترف داعية حقيقيا بل تاجرا من تجار الدين .

وقد كان حب الترف من أهم الأسباب التي حملت أغنياء الكفار فى كل العصور على رفض هدى الله . لأن هذا الهدى يحول بينهم وبين ما يشتهون يقول الله تعالى :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين . قل ان ربي

يُيسر أن يرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون • وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلّٰى الا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون» (سبا ٣٤/٣٧-٣٧) •

وفي هذه الآيات نرى العقلية المادية الكافرة على حقيقتها : تفتخر بالأموال والأولاد ، فذلك مقياسها المادى للتفوق والامتياز • وهذا المقياس هو نقطة من أهم نقاط الصراع بين الاسلام والكفر ، فالاسلام لا يقيم وزناً للأموال والأولاد الا على أنها وسائل تعين المؤمن على العمل الصالح •

وتتضح هذه العقلية المادية أيضا فى تشتيت الكافرين بهذه الحياة الدنيا ونهمهم على متاعها ، لأنها عندهم نهاية المطاف ، وما بعد العيشة من عرار ، ولذلك ينكرون ما وراءها من بعث وحساب :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون • أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون • هيهات هيهات لما توعدون • ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (المؤمنون ٣٣/٣٧-٣٣)

وقد كان معظم كفار مكة من هذه الطبقة المترفة « أولى النعمة » كما قال تعالى :

« وذرني والمكذّبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (المزمل ١١/٧٣) • ويشير القرآن الى أن أولاد الكفار ينشأون فى بيئة مترفة فيقلدون آباءهم فى الترف والكفر معا :

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا اوجادنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٢٣/٤٣) •

٦ - الغرور

سبقت الإشارة الى أن الانسان الغربى الحديث - تحت تأثير الحضارة المادية - قد بلغ به الغرور الى حد انكار وجود الله ، وقطع كل صلة بين الانسان وخالقه ، واتخاذ الانسان الهه هوام ، وأن من أهم

العوامل في هذا الغرور احساس الغربى بتقديمه المادى في العلوم والتكنولوجيا ؛ واحرازه لأسباب القوة المادية ولا سيما السلطة والثروة .
والغرور صفة أساسية ؛ من صفات الكافر ؛ تكمن في أعماق نفسه ؛ وتظهر بأوضح صورها عند القدرة ؛ أى عند تمكنه من السلطة والثروة .
وكلما زادت قدرته زاد غروره واستفحل طغيانه ؛ ولذلك يصل غروره الى القمة عندما يصل هو الى قمة الحكم .

وأوضح من يمثل هذه الصفة في القرآن هو فرعون :

« ونادى فرعون في قومه قال يا قوم ليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى » (الزخرف ٤٣/٥١) .

وهذا الادعاء المغرور بأن له ملك مصر وأرضها يمثل نفسية كل كافر ، وهى تلك النفسية التى تعتز بتملك المادة اعتزازا شديدا ، لأنها تحرص دائما على الدنيا وتحب متاعها حبا جما . ومن ثم يعشق كل ما تجلبه السلطة والثروة من مظاهر كاذبة ومزايا خادعة : كإبهة الملك ، وزينة المواكب ، وقوة الجيوش ، وترف القصور ، والاستمتاع الفاجر بكل أنواع المتع والاستعلاء الوقح على عباد الله .

ومن يدرس تاريخ الامبراطوريات الكافرة يجد هذه الظواهر واضحة فى أباطرتها وطبقاتها الحاكمة . ويظن المخدوعون انها مظاهر قوة حقيقية ، والواقع أنها عوامل ضعف وانحلال تؤدي فى النهاية الى سقوط الامبراطوريات وانهارها ، كما حدث للامبراطوريات « الفرعونية » كلها : من مصرية وفارسية ورومانية وبريطانية .

ولم يكتف فرعون بأن يدعى ملك مصر بل ادعى الألوهية :

« فقال : أنا ربكم الأعلى » (النازعات ٢٤/٧٩) .

وقال : « ما علمت لكم من إله غيرى » (القصص ٣٨/٢٨) .

وهذا السلوك المغرور من الحاكم الكافر يدل على أنه يعتقد أن الملك له ، والمال ماله ، والأرض أرضه ، والناس عبيده ، ولذلك يصم أذنيه عن كلمة الحق وهى أن الملك والمال والأرض لله وحده وأنه مستخلف فيها جميعا الى أجل مسمى ، وأنه مسئول كغيره من عباد الله عن كل ما يعمل ، ولا يتميز عنهم بشئ سوى أن مسئوليته أكبر ووزره أثقل :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (يونس ١٣/١٠ - ١٤) .

٧ - الطغيان

وهذا الغرور سرعان ما يتطور - ولا سيما عند الحاكم الكافر بل وكل انسان بيده سلطة أو ثروة يستعملها على أنه مالك حقيقي لا مستخلف - الى طغيان يتمثل في استعمال السلطة والثروة لا لحكم الناس بالعدل والاحسان ، واعلاء كلمة الله ، بل لتعظيم نفسه وارضاء غروره ، واشباع شهواته ، واتباع هواه .

ويترتب على هذا أن يظلم الناس ، ويأكل أموالهم بالباطل ، بل وبسعيدهم ويقتلهم كلما استطاع ، ولا سيما أولئك الذين يجروون على نصحه ، أو مقاومة طغياله .

وهي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف طغيان فرعون واتخاذ الحكم وسيلة الى العلو في الأرض والافساد فيها ، واستعباد الناس وقتلهم ٢

« ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين » « القصص ٤/٢٨ »

وقد كان هذا الطغيان سببا في صد كثير من الناس عن الإيمان بالله وبرسالاته الى موسى عليه السلام . وحتى القلة التي آمنت به كانت تعيش في رعب دائم من فرعون وأعدائه :

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وعلتهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الأرض وانه لمن المفسقين » (يونس ٨٣/١٠)
ولذلك وصف القرآن حياة بنى اسرائيل تحت حكم فرعون بأنها :

« عذاب مهين » و « بلاء عظيم » . وقد نجاهم الله من هذا العذاب بخروجهم من سلطان حكمه جملة ، أى بخروجهم من مصر ، وكان ذلك من أكبر نعم الله عليهم :

« ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين من فرعون انه يجبان عاليا من المفسقين » (الدخان ٣٠/٤٤ - ٣١)

وبسبب هذا الطغيان الكافر وصف القرآن حكم فرعون بأنه غير
رئيس . فقد استنخدم الحكم بكل سلطاته في اضلال قومه عن هدى الله .
ومن ثم استحق أن يكون « قائدهم » الى النار .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملأه فاتبعوا
أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار
وبئس المورد المورد » (هود ٩٦/١١ - ٩٨)

وقد دعا موسى ربه أن يسلب فرعون السلطة والثروة لأنه وأعوانه
استنخدموها في اضلال الناس وصيدهم عن سبيل الله :

« وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة
الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على
قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (يونس ٨٨/١٠)

٨ - موالاة الكفار ومعاداة المسلمين

كل من أعرض عن هدى الله فان الشيطان يولع بصحبته ويتخذ
وليا ، كما قال تعالى :

« ومن يعيش عن ذكر الرحمن نفى له شيطاناً فهو له قرين »
(الزخرف ٣٦/٤٣) .

وكما قال سبحانه : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »
(الأعراف ٢٧/٧) .

وهذه الصحبة يستغلها الشيطان في تزوين الشر لأوليائه ، كما زين
لكفار مكة متلا أن يدخلوا معركة بدر ، ومناهم بالانتصار فيها ، فلما
بدأت المعركة تخلى عنهم ، وتبرأ منهم « واذا زين لهم الشيطان أعمالهم
وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان
نكص على عقبيه وقال : انى برىء منكم انى ارى ما لا ترون » (الأنفال
٤٨/٨) .

ومن صفات الكافر بوجه عام أن الشريزين له فيراه خيرا ، والعمل
السيء يزين له فيراه حسنا ، ولذلك يأتى من الأعمال شرها ، ويرتكب من
الجرائم أقبحها ، رغم أنه يشعر في قرارة نفسه بما فيها من شر وقبح ،
وذلك لأن « تزوين » الفعل يجعله « يبدو » له جميلا ، وهو ليس كذلك .
والتعبير القرآني الرائع « زين » و « زين » يوحى بأن الفعل الشرير جعل

جذابا ومغريا ، لا بطبيعته وخصائصه الذاتية ، بل بتأثير عوامل خارجية خداعة ، ومن أهمها افلاس الكافر من المقاييس الحقيقية للخير والشر ، بسبب رفضه لمصدر هذه المقاييس وهو هدى الله ، وكذلك ضعف مقاومته لاغراء الشر بسبب خضوعه لهواه .

ومن ثم يمضى الكافر فى أعماله وجرائمه ويمعن فيها ، غير آبه بنصح أو تحذير أو انذار ، ولا متدبر لعواقبها الحتمية الوخيمة ، حتى تؤول به الى الخسران المبين .

وقد وصف فرعون بهذه الصفة فى القرآن ، فقال تعالى :
« وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل » (غافر ٤٠ / ٣٧) .

كما وصف بها غيره من الكفار فقال تعالى :

« كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (الأنعام ١٢٢ / ٦) .

كما نبه القرآن الى الخسران المترتب عليها ؛ فقال تعالى :
« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (الكهف ١٨ / ١٠٣-١٠٤) .

ولما كان الكفار يمثلون حزب الشيطان كما قال الله تعالى :
« استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون » (المجادلة ٥٨ / ١٩) .

وكان حزب الشيطان هو حزب الشر - فلا شك أن الأشرار يوالى بعضهم بعضا كما قال تعالى :

« والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » (الأنفال ٨ / ٧٣) .

وكما قال سبحانه :

« وان الظالمين بعضهم أولياء بعض » (الجاثية ٤٥ / ١٩) .

واشتركهم فى الشر والكفر يجعلهم يتحالفون جميعا على عداوة دين الهدى والخير ، أى على عداوة الاسلام والمسلمين . وقد أخبرنا الله بعداوتهم للمؤمنين فقال تعالى :

« ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » (النساء ٤ / ١٠١) .

ولذلك حذرنا من موالاتهم فقال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وأياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » (الممتحنة ١/٦٠) .

وهذه العداوة الحاقدة هي التي تجمع في عصرنا الحاضر بين أعداء الاسلام جميعا ، رغم ما بينهم من خلافات .

فهى التي تجمع بين الشيوعيين الملاحدة ، والرأسماليين اليهود والنصارى ، والهنود الوثنيين ، والمنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكفر ملة واحدة » .

ومن أهم أهداف الكافرين أن يردوا المؤمنين عن دينهم كما قال تعالى :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (البقرة ٣١٧/٢) .

ومحاولة الكافرين أن يردوا المؤمنين عن دينهم حقيقة واضحة في عصرنا تؤيدها مؤامرات الدول الكافرة - من صليبية وصهيونية وشيوعية - ومؤسساتها ، لتحقيق ذلك الهدف الخبيث ؛ ولا سيما عن طريق التنصير والاستشراق .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (الصف ٨/٦١) .

٩ - المكر السيء

وصف مكر الكافرين في القرآن بأنه مكر السيء ، أى أنه تخطيط شرير للقضاء على الاسلام والمسلمين .

ومن أوضح أمثله تخطيط كفار مكة للقضاء على الاسلام بالقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بحبسه أو قتله أو نفيه ، وقد حبطت مؤامرتهم ، وانتهت الى نتائج عكسية ، اذ كان من تدبير الله تعالى أن تتم الهجرة ، وعن طريقها يتمكن الاسلام في الأرض ويزداد انتشارا . وهذا التدبير الالهى هو ما يعبر عنه القرآن بمكر الله ، أى تدبير الله لأجباط مؤامرات الكافرين بطريقة لا يتوقعونها :

« واذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الأنفال ٣٠/٨) .

ولم تكن تلك هى المؤامرة الوحيدة ، بل كانت مؤامرات الكفار
(من المشركين اليهود المنافقين) تلاحقه صلى الله عليه وسلم طوال بعثته ،
وكان يحزن عليهم ، ويضيق بمكرهم ، ولكنه كان يجد العزاء من الله
تعالى :

« واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما
يمكرون » (النحل ١٦/١٢٧) .

وتاريخ الأنبياء يثبت أنهم كانوا جميعا هدفا لمؤامرات كافرة يخططها
عنه المجرمين :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا
ونصيرا » (الفرقان ٣١/٢٥)

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم
الى بعض زخرف القول غرورا » (الانعام ١١٢/٦) .

وكذلك كان الدعاة والمصلحون والمحددون فى الاسلام هدفا لسلسلة
متلاحقة من المؤامرات الكافرة على دعوتهم ، ومن ثم على شخصياتهم ، وذلك
لأن أعداء الله فى كل عصر يخشون الاسلام على ما يسمونه « مصالحهم » .

والواقع أن « مصالحهم » هذه ما هى الا مطامعهم الجائرة وشهواتهم
الفاجرة التى لا يمكن أن تتحقق الا فى غيبة الاسلام وغيبة دعائه .

ومكر الكافرين - كما أشرنا من قبل - ينبع من عداوتهم للاسلام .
ولما كانت عداوتهم له شديدة كان مكرهم به وبأتباعه شديدا كما وصفه
الله تعالى :

« وقد مكروا بمكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه
الجبال » (ابراهيم ٤٦/١٤) .

ويمكن أن يقسم مكر الكافرين بحسب وسائله الى نوعين :

(أ) الحرب السافرة :

أى محاولة القضاء على الاسلام عن طريق التصفية المادية للمسلمين
بوسائل مادية : قتل زعمائهم ، أو إبادة جماعات كبيرة منهم ، واحتلال
أراضيهم أو اخراجهم من ديارهم أو استعمارهم ونهب ثرواتهم . وهذه
الوسائل متلازمة ، ولذلك كثيرا ما يلجئون إليها جميعا . ولهذا كله
أمثلة معروفة مشهورة فى عصرنا ولا سيما فى فلسطين والجزائر ومصر
والسودان والصومال ونيجيريا والفلبين والهند وأفغانستان .

(ب) الفتنة :

أى محاولة القضاء على الاسلام بتحويل المسلمين عنه بوسائل « سليمة » ، من أهمها وسائل الثقافة والتربية والاعلام . وتتمثل هذه « الفتنة » بوضوح فى مؤامرات الغزو الثقافى والردة التى يقسوم بها الصليبيون والصهيونيون والشيوعيون على أيدي المستشرقين والمبشرين والعلمانيين والملحدين لتحويل المسلمين عن دينهم .

ولا شك أن هذا النوع من المكر أشد خطرا على الاسلام والمسلمين من الحرب السافرة و « الفتنة اكبر من القتل » (البقرة ٢١٧/٢) . وقد ثبت نجاحه وفعاليته فى « ابادة » أجيال كاملة من المسلمين بتحويلهم « سلميا » عن الاسلام ، وذلك بتغييرهم نفسيا وعقليا حتى يزول كل ما « يميزهم » كمسلمين ، وتنمى كل خصائص شخصيتهم الاسلامية ، فيصبحوا والكافرين سواء ، كما قال الله تعالى :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » (النساء ٨٩/٤) .

وبهذه الوسائل الخبيثة استطاع أعداء الاسلام فى عصرنا أن يحكموا كل الشعوب الاسلامية تقريبا بواسطة تلاميذهم وعملائهم من « المسلمين » الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

يقول الاستاذ سعيد حوى (١) : « فى كل قطر اسلامى مؤسسات كافرة أو عميلة ضخمة جدا يصعب على الانسان تصور حجمها ولا تعرف عنها الا القليل ، نشرت الصحف ونشر هذا فى كتاب « ايلي كوهين من جديد » ، وذكر عبد السلام عارف أثناء حكمه للعراق أن عدد العراقيين التابعين لجهاز المخابرات البريطانية فى العراق يبلغ ثلاثة وثلاثين ألفا . ونقل بعض من يتتبع مثل هذه القضايا أن قريبا من هذا الرقم يشتغل فى منطقة الشرق الأوسط تابعين للمخابرات الأمريكية » .

ثم تأتيك فى كل قطر التنظيمات الشيوعية ، والمحافل الماسونية ، والمدارس والمؤسسات التبشيرية ، والأحزاب الوطنية والقومية والزعامات الشخصية ، والمؤسسات الثقافية والتوجيهية . وكل هذه تمثل غالبا عمالة فكرية أو سياسية للكافرين ، ووراء كل منها من يغذيها .

ثم تأتيك الأقليات فى الاقطار الاسلامية ، والتى يحاول كل كافر أن يسخرها لمآربه . ثم يأتيك الجيل الذى خرج هؤلاء جميعا وأمثالهم والذى يتطوع أحيانا ليؤدى دور هؤلاء بكل حماسة أثناء غيابهم . ثم

(١) جند الله ثقافة وأخلاقا : ص ١١ - ١٢ (باختصار) .

يأتيك أعتنى هؤلاء جميعا وأكثرهم خبثا : الصهيونية العالمية والقوى التي
تعمل لصالح اليهودية في كل مكان . .

وعلى هذا فقد وضع لنا في أرضنا قوى عاتية فروعها في أرضنا
وجذورها في الخارج .

ولا شك أن لكل هذا صلة وثيقة بانتشار ظاهرة الردة في نظم
ومؤسسات العالم الاسلامي كله تقريبا . وكان من نتائج هذه الردة -
كما يقرر الأستاذ سعيد حوى (١) - أن انحسر الاسلام عن الحياة انحسارا
ناما تقريبا : انحسر نظامه السياسي وانحسر مفهومه عن الأمة لبطل محله
مفهوم القومية وانحسر مفهومه عن الوطن وعن القضاء وانحسرت تشريعاته ،
وانحسر مفهومه عن الثورى لتحل محله مفاهيم الديمقراطية الشرقية أو
الغربية ، وانحسر مفهومه عن السلطة التنفيذية ، والحزبية الربانية ،
وانحسر نظامه الاجتماعي ، وانحسر مفهومه عن الأسرة والتربية
الأسرية وعن العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الناس ، وعن العلاقة
بين الرجل والمرأة ، وانحسر نظامه العسكرى ومفهومه عن الجهاد ، كما
انحسر نظامه التعليمى ومفهومه عن فروض الكفاية والعلوم المفروضة
والمكروهة والمباحة ؛ ومفهومه عن التربية والتعليم ؛ وكذلك انحسر نظامه
الاخلاقي . .

وبالرغم من كل ذلك فالأستاذ سعيد لا يحكم على المجتمعات الاسلامية
بأنها كافرة ؛ بل بأنها « مجتمعات فاسقة محكومة في الغالب بمرتدين أو
منافقين أو كافرين . وما نظن أن انسانا يفهم الاسلام يهوله هذا
الحكم (٢) » .

ولكن اذا وجد « المؤمنون حقا » .

فان كيد الكافرين لابد أن يرتد الى نحورهم :

« ولا يحقيق المكر السيء الا بأهله » (فاطر ٤٣/٢٥) .

« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور »
(١٠/٣٥) .

ومعنى هذا ألا يقف المؤمنون (اذا كانوا مؤمنين حقا) متفرجين

(١) المرجع السابق ص ٩ - ١٠ .

(٢) السابق ص ١٠ .

حتى يحقق المكر السيء بأهله . فلا يمكن أن يتحقق الانتصار في أى صراع بدون ابتلاء الله للمؤمنين حتى يبذلوا كل جهدهم في هذا الصراع ، فلا انتصار - حتى للمؤمنين - بدون جهد . وذلك هو قانون الصراع البشرى الذى قرره القرآن الكريم :

« ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (محمد ٤٧/٤) .

« ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » (٣١/٤٧) .

فالمكر السيء ينبغي أن يواجهه المسلمون بمكر حسن ، أى بالتخطيط الاسلامى الذى يجب أن يشمل :

١ - دراسات موضوعية لكل مخططات « الفتنة » ووسائلها ومؤسستها ، ولا سيما فى ميادين الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى المدارس والجامعات .

٢ - نشر هذه الدراسات بين المسلمين ، لفضح مخططات الكفر ، وبوعية المسلمين بخطرهما ، ووسائل توقى شرهما .

٣ - مواجهة تلك المخططات بالبدائل الاسلامية . واستعمال هذه البدائل ولا سيما فى التربية سيثبت انها أنفع للمسلمين .

« فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (الرعد ١٣/١٧) .

المكر بالنفس :

المكر السيء - ككل الصفات النفسية الشريرة - لا بد أن يعود بالشر على صاحبه . وهذا نوع من عقاب الفطرة لكل انسان يخالف دين الفطرة . فأكابر المجرمين المتآمرين على الأخيار فى أى مجتمع يحيون فى الحقيقة حياة لا يحسدون عليها . لأن طبيعة التآمر تفرض عليهم كثيرا من ألوان النصنع والخداع ، وتورثهم كثيرا من أنواع الخوف والقلق ، فهى איست حياة طبيعية أو آمنة ، وكثيرا ما تنتهى نهاية مأساوية بالجنون أو الانتحار . وكل ذلك دليل على أن المكر السيء بالغير هو فى الحقيقة مكر بالنفس كما قال تعالى :

« وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما
يمكرون الا بأنفسهم » (الأنعام ١٢٣/٦) .

١٠ - الواقعية المادية.

الايان بالواقع المادى صفة أساسية من صفات الكافر .

وهى نتيجة طبيعية مترتبة على حبه للعاجلة وكفره بالغيب .

فالكافر - كما أشرنا من قبل - ذو عقلية مادية مغرقة فى المادية ،
وذلك بحكم انكاره لكل المفاهيم والقيم الربانية والروحانية التى لا ترى
ولا تلمس باليد ، لأنها تنتمى جميعا الى عالم الغيب : كوجود الروح
وخلودها وسموها على المادة ، وحتمية البعث والحساب والجزاء ، أى حتمية
المسئولية الانسانية أمام احكم الحاكمين .

والكافر بحكم هذه العقلية المادية لا يؤمن الا بما يرى وجوده ،
ويحس أثره المباشر على حياته فى هذه الدنيا . أما ثقفا عاجلا ، أو خطرا
داهما . أى انه لا يؤمن الا بما يسمى (الأمر الواقع) .

وهذه الصفة تفسر لنا لماذا يقدم الكافر (أو « المسلم » ذو العقلية
الكافرة) على كثير من أفعال الشر والظلم . فهو وان تصور أحيانا آثارها
السيئة وعواقبها الوخيمة - فانه يرى تلك الآثار والعواقب بعيدة وغير
محققة الوقوع . وهذا أحد الأسباب فى أن الكفار كانوا يستبعدون اليوم
الآخر وهو يوم مسئوليتهم عن أعمالهم ، كما قال تعالى :

« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » (المعارج ٦/٧٠ - ٧) .

ولذلك يمعن الكافر فى أفعال الشر والظلم ، متوهما - وبخاصة اذا
كان بيده سلطة ومال - أنه بمائن من أن يحقق به مكرمه ، وأن يرتد اليه
كده .

ويظل الكافر هكذا حتى يرى بعينه أن ساعة القصاص قد دنت
وأنه من عقاب الله لن يفلت ، فان الله يمهل ولا يهمل ، كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ان الله ليملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته » (متفق
عليه) .

وعندئذ فقط تتبدد غشاوة كفره و « يؤمن » بالأمر الواقع وهو

العذاب . ومن ثم كان الكفار يستعجلون عذاب الله ، ولكنهم لم « يؤمنوا »
حتى حل بهم ، أى بعد فوات الأوان كما قال الله تعالى :

« قل أرأيتم ان اتاكم عذابه بيّاتا او نهارا ماذا يستعجل منه
المجرمون . اثم اذا ما وقع آمنتم به » الآن وقد كنتم به تستعجلون «
(يونس ٥٠/١٠ - ٥١) .

وكما قال تعالى :

« ولا يزال الذين كفروا فى مربة منه حتى تأتاهم الساعة بغتة او
يأتاهم عذاب يوم عقيم » (الحج ٥٥/٢٢) .
وذلك ما فعله فرعون فأمن حين رأى بعينه خطر الموت :

« حتى اذا ادركه الفرق قال : آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو
اسرائيل وأنا من المسلمين . الآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »
(يونس ٩٠/١٠ - ٩١) .

ومن الواضح أن ايمانه كاذب ، لانه ايمان فرضته الظروف ولذلك
سرعان ما تعود النفس الكافرة - وهى نفس لثيمة - الى الكفر والشر
بمجرد زوال الخطر :

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » (الأنعام ٢٨/٦) .

وهذه العقلية الكافرة تنعكس فى سياسة « الأمر الواقع » التى
تنتهجها الدول الكافرة فى هذا العصر .

ومقتضى هذه السياسة حمل الناس بالقوة (وبخاصة المسلمين) على
الرضوخ للواقع والرضى به مهما كان شرا وظلما .

وهذه السياسة لا تصطدم بمبدأ واحد أو بضعة مبادئ فى الاسلام ،
بل تصطدم بكيان الاسلام كله . بل ن الاسلام فى جوهره ثورة دائمة على
الشر والظلم ، وبخاصة اذا أصبحا أمرا واقعا . وفى هذه الحالة يفرض
الاسلام بذل أقصى ما فى طاقة كل مسلم لتغيير هذا الواقع .

ومثال ذلك أن العدوان على دار الاسلام ما دام محتمل الوقوع فالجهاد
فرض كفاية ، فاذا تحقق العدوان بالفعل أصبح الجهاد فرض عين .

والمبدأ العام فى هذه القضية قد قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (المائدة ١٠٠/٥) .

فليس فى الاسلام مبرر - عقلى أو أخلاقى - للخبيث ، حتى بكثرة وجوده ، فضلا عن مجرد وجوده . وذلك لأن الشر والخير لا يستويان ، لا فى حكم العقل ولا فى ميزان الأخلاق .

وقد أشار القرآن الكريم الى أن الحكم بالمساواة بين الأشرار والأخيار هو عند العقل حكم واضح الشناعة ، مرفوض بالبداهة :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون » (الجاثية ٢١/٤٥)

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ » (القلم ٣٥/٦٨ - ٣٦) .

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون » (السجدة ١٨/٣٢) .

ولذلك كان من أهم أهداف الجهاد فى الاسلام أن يندحر الكفر لأنه شر وينتصر الايمان لأنه خير :

« ليميز الله الخبيث من الطيب » (الأنفال ٣٧/٨) .

ومن ثم كان الجهاد فريضة ماضية الى يوم القيامة ، لا يجوز للمؤمنين أن يتخلوا عنها :

« ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (آل عمران ١٧٩/٣) .

وننعكس هذه العقلية الكافرة كذلك فى الفلسفة المادية الشيوعية اذ تقوم هذه الفلسفة كما هو معروف على أن الانتاج المادى وحده هو الذى يتحكم فى الانسان ، وفى تطوره الفكرى والخلقى والسياسى والاجتماعى . ومن ثم تنكر وجود الله ووجود الروح وكل عالم الغيب ، كما تنكر الدين جملة وتدعوه « منحدر الجماهير وأفيون الشعوب » وكذلك تنكر كل القيم

«الروحية والمنزل الخلفية العليا للإنسان»، وتهبط به إلى حضيض الحيوان،
الذي يعيش ليأكل ويأكل ليموت.

«وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبفوثين» (الأنعام
٢٩/٦)

ولا عجب بعد هذا أن تكون هذه الفلسفة الكافرة من نتاج يهودي،
اسمها كارل ماركس.

أسباب أضلال الكافر

هي أسباب كثيرة ومتراصة ، ونقتصر منها على سببين رئيسيين وهما :
اتباع الهوى ، وحب العاجلة .

اتباع الهوى :

الهوى بايجاز هو كل ما تحبه النفس من شهوات الدنيا ، وما تكرهه من آلام الابتلاء فيها . واتباع الهوى مرتبط ارتباطا وثيقا برفض هدى الله .

لأن الذى يتبع هواه ، يفعل ما تحبه نفسه ، مهما كان وخيم العواقب ، ويتجنب ما تكرهه مهما كان محمود العواقب . وذلك لأنه لا يحكم هدى الله فيما يأتى وفيما يدع من أفعال . وهدى الله يقول لنا :

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ؛ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة ٢/٢١٦) .

فالحب أو الكره بدون ضابط من هدى الله ليس مقياسا مطلقا لخيرية الأفعال أو شرها .

فمن الواضح من ملاحظتنا اليومية أن الطفل مثلا لو ترك مخلى هواه بدون تأديب أو تربية فانه يقدم على أفعال كثيرة تضره ولا تنفعه ، كان يسرف فى أكل الحلوى أو يسرقها أو يخطفها ، لأنه يجدها لذينة !

وليس الأمر مقصورا على الأطفال ، فذلك ما يفعله « الكبار » ، أيضا : كالزناة واللصوص وشاربى الخمر . ليس الزانى يندفع وراء الفاحشة لأنه يجدها لذينة ؟ وكذلك اللص وراء المال والسكير وراء الخمر ؟ فكل من هؤلاء لا يندفع لارتكاب جريمته الا لأنه اطلق العنان لشهواته واهوائه بلا ضابط من هدى الله .

وقد أشرنا من قبل الى أن الهدى مترتب على الإيمان . فمن لا إيمان

له اطلاقا كالكافر ، أو من ايمانه غائب أو معلق كالمسلم العاصي ، لا يحكم هدى الله في هواه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن »
(متفق عليه) .

ومعناه - والله أعلم - أن الكافر يرتكب هذه الآثام لأنه لا إيمان له ، والمسلم يرتكبها حين يكون إيمانه في حالة غياب «Absence» أو تعليق «Suspense»

وفي هذه الحالات لا « يستحضر » متبع الهوى هدى الله ، بل يذهل عن ذكره ويغفل عن تعاليمه ، فيفقد نوره ، فيتخبط في ظلمات الائم .
ومن أهم الأسباب التي تحمل الكفرة الفجرة على رفض الاسلام أنه يحول بينهم وبين ما يشتهون ، فيحرق ما يشتهون اليه دائما نفوسهم المنهومة ، وأهواؤهم الدنسة . فالاسلام مثلا يحرم الزنى وكل أنواع الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن . وهم يريدون اتباع شهواتهم بلا حدود ولا قيود اشباعا حيوانيا كما قال تعالى عنهم :

« يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » (محمد ٤٧/١٢) .

والاسلام يحرم الربا والانسان الكافر يريد أن يشرى بأية وسيلة ولو على حساب استغلال أخيه الانسان ، ولذلك يحل ما حرم الله ، ارضاء لشهواته واتباعا لهواه ؛ كما أحل الكفار الربا قديما وحديثا ؛ اتباعا لشح أنفسهم ؛ وقصدا الى تضخم ثرواتهم ؛ وحاولوا تبرير ذلك كما قال تعالى :

« ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا »
(البقرة ٢/٢٧٥) .

حب العاجلة :

حب العاجلة مفهوم قرآلي متعدد الأبعاد :

فهو يصف لنا الطابع المادي للشخصية الكافرة ؛ تلك الشخصية التي لا تدرك إلا ما هو محسوس لها ؛ قريب منها ؛ في الزمان أو في المكان ؛ ولا تشعر (وإن شعرت فلا تهتم) إلا بما له تأثير مادي مباشر عليها .
فهي لا تؤمن إلا بما هو مادي ملموس وتنكر ما وراء ذلك . ثم لديها نهم

دائم لا يشبع لتلك الأشياء المادية التي يسميها القرآن « متاع الحياة الدنيا »
(آل عمران ١٤/٣) ؛ كالنساء والأولاد والأموال ، ولذلك تتعجل دائما
الحصول عليها من أقصر طريق ، وبأية وسيلة .

وهذا التعجل من طبيعة الانسان بوجه عام كما قال تعالى :

« خلق الانسان من عجل » (الأنبياء ٣٧/٢١) .

« وكان الانسان عجولا » (الاسراء ١١/١٧) .

ولكن شخصية المسلم يهذبها الاسلام ، فتتهدى بهدى الله وبرسوله
وتتأدب بأدب القرآن والسنة ، ولذلك لا تتطلب محرماً فضلاً عن أن
تتعجله ؛ وحتى الحلال تطلبه ولكن تجمل في الطلب .

وقد أخبرنا الله تعالى أن من أسباب تعجل الانسان لشهوات الدنيا
انها زينت له لثغريه بها ، وذلك نوع من الابتلاء لتمييز المؤمن من الكافر :
(انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »
(الكهف ٧/١٨) .

فتزيين الدنيا للناس هو ابتلاء من الله لهم ، وبه يتبين الفرق بين
المخدوعين بزينتها والعارفين بحقيقتها ، وينعكس هذا الفرق في أعمال كل
منهما .

فأما المخدوعون فيترامون عليها ويتهاكون على متاعها ، وتصيب
حياتهم سباقاً محموماً متصلاً يؤدي بسكينة أنفسهم ، ولا يوقفه الا الموت .
كما يصبح جوعهم الى الدنيا نهماً لا يشبعه الا التراب ، بل تصبح الدنيا
عندهم غاية في ذاتها ، وليست وسيلة الى الآخرة ، كما قال تعالى عنهم :

« ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » (الانسان
٢٧/٧٦) .

ومن فرط حبهم للدنيا ينكرون الآخرة ولا يريدونها :

« ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نرجى بمبعوثين » (المؤمنون
٣٧/٢٣) .

وأما العارفون بحقيقتها فيتمتعون بطيباتها ، ومن أفضل متعهم فيها
شغل أوقاتهم فيها بأعمال صالحة تحمل طابع العبادة لله ، والرضى
بقضائه ، والتزود للقاءه ، ومن ثم يحيون « الحياة الطيبة » الخالصة

بالتشاطر الجيد في العمل الصالح . وبهذا تتحقق لهم السكينة النفسية ؛
لأنهم اتخذوا الموقف الصحيح من الدنيا ؛ فخلت نفوسهم من القلق على
متاعها ؛ ومن الناس ؛ فأثروا ما عند الله على ما عند الناس .

ويبين الطابع المادي للشخصية الكافرة من جانب آخر وهو
الارتباط الوثيق بين عبادة الأوثان وعبادة المادة .

فمن أسباب عبادة الأوثان أو مظاهر الطبيعة ، أن الكافر يراها
ويشعر بوجودها المادي ، ويلمس آثارها - الحقيقية أو الموهومة - على
حياته .

ومن أسباب كفره بالله تعالى أنه لا يدركه باللمس ولا يراه بالعين .
ولذلك قال اليهود ذروا العقلية المادية لموسى عليه السلام :

« لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (البقرة ٥٥/٢) .

ولما غاب عنهم موسى عليه السلام اتخذوا لهم الهة :

« من حلّهم عجلاً جسداً له خوار » (الأعراف ١٤٨/٧) .

أي الهة مادية له جسد يروونه ويلمسونه ، وصوت يسمعون ، وهو
مصنوع من الذهب اله الماديّين في كل زمان ومكان .

وكذلك فإن من أسباب انكار الكافرين لليوم الآخر أنه ليس مشهودا
لهم ولا قريباً منهم ؛ ولذلك « يراونه بعيدا » (المعارج ٦٠/٧) .

فالكافر - كما سبق القول - لا يؤمن بالغيب وإنما يؤمن بالأمر
الواقع .

وقد أشار القرآن الى هذين السببين - وهما اتباع الهوى وحب
العاجلة - في آيات عديدة منها قوله تعالى :

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن أضل
ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » (القصص ٥٠/٢٨) .

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (ص ٣٨/٢٦) .

« يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (الأنعام ١٣٠/٦) .

« ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين » (النحل ١٠٧/١٦) .

نماذج قرآنية لشخصية الكافر

فيما يلي اشارات موجزة لبعض هذه النماذج (١) :

١ - فرعون : في شخصيته تتجسد صفات الكافر عندما يحكم ، ولا سيما الغرور والطغيان ، والافساد في الأرض ، والمكر السيئ ، وعداوة المؤمنين ، والعقلية المادية الكافرة التي لا يؤمن صاحبها حتى يدركه الموت كما سبق بيانه .

٢ - قارون : يمثل شخصية الكافر الذي « يطغى أن رآه استغنى » (العلق ٦/٩٦ - ٧) . فقد استغنى قارون واغتر بكثرة ماله ، وقال : « انما أوتيته على علم عندي » . واستعبده المال فشحت به نفسه على الفقراء والمحتاجين ، فلم يحسن اليهم كما أحسن الله اليه ، وفضل كنز ماله على الانفاق منه في سبيل الله . وظهر بطره وغروره في خروجه على الناس في موكب زينته ، كما كان يفعل أباطرة الرومان . وبالرغم من أن هدى الله قد دله على سلوك متوازن يجمع بين خير الدنيا والآخرة ، فينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وكذلك يتمتع بنصيبه من الدنيا - فقرّر رفض هدى الله ، واتبع هواه ، وآثر الدنيا على الآخرة فخسر كليهما وذلك هو الخسران المبين .

وقد جمعت سورة القصص بين هذين الكافرين ، فبدأت بقصة فرعون ؛ وانتهت بمأساة قارون .

٣ - المنسلخ عن آيات الله : وهو العالم الذي لم ينفعه علمه ، فلم يعمل به ؛ فلم يرفعه الله به الى سماء الربانيين وورثة الأنبياء ؛ لأنه آثر حضيض الأرض ، وسلوك الحيوان ، فاتبع شهوته وهواه :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان

(١) عن هذه النماذج راجع سيد قطب : في ظلال القرآن ٦٧٦/٩ ، ٣١٤/٢٠ ، ٣٧١ ، ٢١٢/٢٩ ، ٣٥٤ .

فكان من الفاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هواه فمشله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاتقص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وانفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »

(الأعراف ١٧٥/٧ - ١٧٩) .

٤ - الوليد بن المغيرة : ورد وصف الوليد بن المغيرة في القرآن الكريم في قوله تعالى :

« ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تهويداً ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلاً ! انه كان لآياتنا عنيداً ، سارها لله صهوداً . انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر ساصليه سقر . وما ادراك ما سقر لا تبقى ولا تذر . لواحدة لابس . عليها تسعة عشر » (المدثر ١١/٧٤ - ٣٠) .

وقد كان الوليد بن المغيرة عم أبي جهل ، ومن عظماء قريش ، وفي سعة من العيش . وهذه الآيات تدل بوضوح على أن الوليد قد اسبغ الله عليه نعماً كثيرة . فأعطاه أموالاً طائلة وأولاداً عدة ، ويسر له الحياة ، ولكنه لم يقابل هذه النعم بشكر الله عليها ، بل اغتر بها ، وجحد فضل منعمها ، فكذب بآيات الله واعرض عنها مع أنه كان في قرارة نفسه يؤمن بأنها الحق :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (النمل ١٤/٢٧)

وقد روى أن الوليد جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : لئن صبا الوليد تصبأ قريش كلها . فقال أبو جهل : أنا اكفيكموه . فأتاه فقال له : أي عم ! ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال : يعطونك ، فانك اتيت محمداً تتعرض لما قبله ! (يريد بخبث أن يثير كبرياءه) قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنت كاره له . فقال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برجزه ولا قصيده ، ولا بأسعار الجن .

الشخصية الانسانية - ١٤٥

والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا • وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة
وأنه يعلو وما يعلى • قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه • فدعنى
حتى أفكر فيه • فلما فكر قال : ان هذا الا سحر يؤثر عن غيره • أما ترون
أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟ فنزلت : « فذرني ومن خلقت
وحيدا » حتى « عليها تسعة عشر » •

ومن الواضح أن حب المال والرئاسة والمتعة فى الأهل والولد -
كان أهم العوامل فى رفض الوليد للاسلام ، وتفضيله الضلال على الهدى ،
والكفر على الايمان » (١) •

الضال غير الكافر

الانسان الضال بوجه عام هو كل انسان لا يؤمن ولا يعمل بهدى
الله ، أى لا يتبع الاسلام فاذا كان عدم الاتباع ناشئاً عن تعمد ، وبعد
علم بالاسلام وتبين له ، أو امكانية العلم والتبين - فالانسان ضال كافر ،
كما رأينا فى شخصية الكافر •

واذا كان عدم الاتباع ناشئاً عن جهل غير متعمد بالاسلام أو عن
اكراه فالانسان ضال غير كافر •

والانسان الضال غير الكافر أنواع منها (على سبيل التمثيل لا
لا الحصر) •

١ - **الضال من أهل الفترة** : وهو الذى عاش ومات قبل الاسلام ،
ولم تبلغه رسالته • فهذا وأمثاله ضالون ولكنهم غير كافرين ، لأن لهم
عذرا وهو عدم وجود الهدى وعدم تبينه لهم • والمشهور من رأى أهل
السنة أنهم لا يعذبون على ضلالهم لقوله تعالى :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٧ / ١٥) •

أما رأى المعتزلة فى أن العقل البشرى وحده يكفى فى التكليف فغير
مقبول ، لأن هذا العقل كثيرا ما يخطئ ويضل • فاعتماد الانسان عليه
وحده لا يمكن أن يهديه سواء السبيل •

(١) راجع سيد قطب : فى ظلال القرآن ٣٦١ / ٢٩ • وكذلك تفسيره لآيات سورة
القلم (١٠ / ٦٨ - ١٦) • ويقال انها نزلت فى الوليد بن المغيرة أو فى الأخنس بن شريق •

وآراء الفلاسفة منذ عصر اليونان حتى اليوم شاهد واضح على أن العقل البشرى المستقل عن الوحي الآلهى قد تعثر فى اخطار فادحة كلفت البشرية منا باهظا فى كل العصور .

والحضارة الغربية الحديثة - وهى وريثة الحضارتين اليونانية والرومانية - تتميز بعلمانياتها وماديتهما واعتمادها على العقل البشرى المستغنى عن هدى الله . وقد سبق أن أشرنا الى الأخطار التى تهدد الانسانية من جراء هذا الموقف .

٢ - **الضلال الأعمى** : وهو الذى عاش فترة من حياته فى الجاهلية وفترة فى الاسلام . فلم يتبع هدى الله قبل ظهوره لأنه لم يعرفه ، فلما جاء الاسلام آمن به واتبعه فأصبح مهتديا . ومن هذا النوع كل من أدرك الاسلام فأسلم من أهل الجاهلية وهم المسلمون فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا قبل الاسلام ضالين ، ولكنهم ليسوا كافرين واليههم تشير الآية الكريمة :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (الجمعة ٢/٦٢) .

٣ - **الضلال الجاهل بوجود الاسلام** : وهو من لا يتبع الاسلام بعد ظهوره لأنه يجهل وجود هذا الدين كلية ، أى لم يسمع به قط ، ولا يعرف عنه شيئا على الاطلاق . كما هو حال كثير من الناس اليوم ، ولا سيما بين القبائل البدائية وسكان المناطق القطبية .

وفى رأى أنه لا ينبغى أن نتسرع بتكفير هؤلاء ، أو بالقاء اللوم عليهم وحدهم ، أو على العلماء والدعاة المسلمين وحدهم ، فالمسئولية مشتركة بين جهات عديدة .

فالحكومات والهيئات الاسلامية مقصرة ، لأنها لم تهيب عدد كافيا من العلماء والدعاة المؤهلين لتعريف هؤلاء بالاسلام ، كما لم تنشئ المؤسسات الاسلامية الكافية (كالمدارس ومراكز الدعوة ودور النشر) للقيام بهذه المهمة .

ولكن لا شك أن بعض هؤلاء الجاهلين بوجود الاسلام لا عذر لهم فى هذا الجهل فى عصرنا ، لأنه عصر قد انتشرت وسهلت فيه وسائل المعرفة والاتصال ، فيستطيع هذا البعض - لو أرادوا - أن يعرفوا الكثير عن

الاسلام بجهودهم الخاصة . ولذلك فهم كفار ، لأنهم مقصرون بدون عذر
فى طلب الهدى .

واكن معظم الجاهلين بوجود الاسلام لهم عذر فى جهلهم ، وبدلا من
أن تتسرع بتكفيرهم ولعنهم ينبغى أن نسارع بإيصال نور الله اليهم ،
حتى لا يكون لهم عذر فى جهلهم ، ولا يكون علينا ذنب فى اهمالهم .

٤ - الضال الجاهل بهمحتوى الاسلام : وهو من لا يتبع الاسلام
بعد ظهوره لا لأنه يجهل وجوده ، بل لأنه يجهل محنواه من عقائد وعبادات
وشريعة وأخلاق وثقافة أى يجهل كل مبادئه وتعاليمه ، وليس فى
استطاعته أن يعرف شيئا من ذلك ، لأن وسائل هذه المعرفة غير
متاحة له (١) .

وهذه أيضا حال كثير من الناس فى عصرنا ولا سيما فى الشعوب
الناطقه بغير العربية .

وفى رأى أن عددا غير قليل من هؤلاء سيعتنقون الاسلام ، اذا
شرحت لهم مبادئه وتعاليمه شرحا كافيا بلغاتهم ، لقوله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم ١٤ /
٤) .

وأصدق شاهد على فعالية هذا التبیین اقبال كثير من الافريقيين
والاوروبين والامريكيين واليابانيين والكوريين على الاسلام بعد تقديمه
اليهم بلغاتهم تقديمًا مدروسًا لا مرتجلا ، ومبشرا لا منفرا ، مع استخدام
كل الوسائل الحديثة للتربية والاعلام فى هذا التقديم .

٥ - الضال الاعرابى : هو المسلم الذى قبل الاسلام بلسانه ، ولكن
الايمان لم يدخل قلبه ، ومن ثم فهدى الله (بكماله وشموله) لا يحكم
حياته بكل جوانبها . وهذا النوع يشبه الأعراب الذين قال الله تعالى
فيهم :

« قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل
الايمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا »
(الحجرات ١٤ / ٤٩) .

وهذا حال كثير من المسلمين اليوم .

(١) فاذا كانت مناحة له ويستطيع استخدامها ولم يستخدمها فهو ضال كافر .

فهناك أعداد غفيرة من عامة المسلمين وخصاصتهم ، ينطقون بالشهادتين ، ويؤدون بعض العبادات (كالصلاة والصيام والحج) اداء آليا لا روح فيه ولا أثر له فى سلوكهم فى الحياة وعلاقتهم بالله والناس .

فصلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم لا يحد (بل يزيد) من شرهم على شهوات البطن والفرج ، وحجهم لا يمنعهم من الرفث والفسوق والجidal . بل ان كثيرا منهم يؤدون هذه العبادات مرااة للناس وبروح انتهازية تهدف الى الكسب المادى والشهرة الزائفة أى يتخذون الاسلام نجارة دنيوية لا صلة لها بملك التجارة الربحة التى قال الله عنها :

« يا ايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (الصف ٦١/١٠-١١) .

وهؤلاء يحكمون بعض كتاب الله فى بعض جوانب حياتهم (كمراسيم الزواج والطلاق والميراث أى ما يسمونه «الأحوال الشخصية») وفيما عدا هذا فحياة العامة منهم مكفهرة بظلمات الجهل والخرافة ، وحياة الخاصة ملوثة بضلالات العلمانية والانحلال والترف . والمسلم من هؤلاء وأولئك ذو شخصية جاهلية فيها صلف وجلافة ، وسطحية وتفاهة ، أو شخصية منافقة نقول ما لا تفعل ونظهر غير ما تبطن ، ظاهرها جنادب وباطنها خراب . وكل منهما ذو نفسية غليظة كنيهة لا نحس بالام المسلمين — فضلا عن أن تواسيهم بعلم أو مال — وذو قلب معتم لا يرى بنور الله لأنه من تلك القلوب اليهودية التى قست بالتكالب على المادة ، فأصبحت كالنجارة أو أشد قسوة ، بل وأصبح فى طبيعتهم شئ من طبيعة القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

هذا النوع من المسلمين « كثرة كفناء السيل » . كثرة تافهة ذليلة . . . « احرص الناس على حياة » . . اذلهم حب الدنيا وكراهة الموت . . . أموات غير أحياء . .

وبالرغم من كل ذلك فمن الخطأ أن نقذف فى وجوههم بتهمة الكفر فهذه التهمة لا تحل مشاكل المسلمين ، بل تزيدها تعقيدا ، فضلا عن أن الاسلام لا يبررها .

ذالآبة التى استشهدنا بها من سورة الحجرات توضح ثلاث حقائق أساسية بالنسبة للاعراب :

أولا : أنهم مسلمون •

ثانيا : أن اسلامهم الظاهري يعد خطوة تقربهم الى الايمان بدليل التعبير بلما : « ولما يدخل الايمان فى قلوبهم » •

ثالثا : أن فى الآية الكريمة تشجيعا لهم على الاستمرار فى هذا الطريق المتدرج من الاسلام الى الايمان الى العمل بالكتاب والسنة ، الى طاعة الله ورسوله •

وهذه المراحل الثلاثة المتعاقبة : الاسلام – الايمان – العمل بالكتاب والسنة – هى المراحل النفسية والتربوية التى ينبغى أن تتبع فى تربية « الأعراب المعاصرين » ! •

فلا مناص هنا أيضا لورثة الأنبياء من أن يسلكوا نفس الطريق الطويل الوعر الذى سلكه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وهو طريق التربية القائمة على هدى الله •

٦ – الضال المكروه : وهو من أكره على أن ينطق بالكفر أو يعمل بأعمال الكافرين ولكن قلبه مطمئن بالايمان فهذا ضال بحسب الظاهر فقط ، وحقيقته أنه مؤمن صادق • لقوله تعالى :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل ١٦/١٠٦) •
سبب الضلال غير الكافر :

كما سبق يتضح لنا أن أهم أسباب هذا الضلال – ما عدا الاكراه – هو الجهل بالهدى • وطالما أن هذا الجهل غير متعمد فيمكن تداركه وعلاجه ، وعلاج الجهل يكون بالعلم ، أى عن طريق تبين الهدى وتربية الناس عليه ، حتى يحيوا حياة مهتدية • كما أشرنا من قبل •

٥ - شخصية المنافق

المنافق - بوجه عام - هو الانسان الذى يظهر غير ما يبطن ويقول ما لا يعتقد وما لا يفعل ، وبالأحمال بتظاهر بما ليس فيه .

والمنافق الكافر هو من يظهر الايمان ويبطن الكفر .

وشخصية المنافق شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها ، فكأنه شخصيتان منصارعتان تعيشان فى جسد واحد ، احدهما نعبر عن نفسها خلال المظاهر الخارجية التى يراها ويسمعاها الناس ، كالملايس والابتسامات والكلمات ، والأخرى تعبر عن نفسها بالمشاعر والاعتقادات الداخلية التى لا يطلع عليها أحد (الا من شاكلها فى النفاق) ، كمشاعر الحب والبغض ، واعتقادات الايمان والكفر .

وهذا الصراع ينبع من ان المنافق ليس أميناً مع نفسه ولا مع الناس ، فهو يكذب على نفسه ليرضى الناس ، ويكذب على الناس ليخدعهم عن حقيقته . والواقع أنه لا يخدعهم ، لأن أعماله لا تصدق أقواله ، وهذا التعارض بين ما يقول وما يفعل هو الذى يكشف للناس حقيقته مهما حاول اخفائها . فهو اذن يخدع نفسه ، ولا يخدع الناس ، فضلاً عن أن يخدع خالقه الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور . وهذا مصداق قوله تعالى عن المنافقين :

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون »
(البقرة ٩/٢)

وقد أشار القرآن الى أن شخصية المنافق مريضة وذلك فى قوله تعالى عن المنافقين :

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (البقرة ١٠/٢)

كما أشار القرآن الى السمات النفسية التى تعد أعراضاً لهذا المرض ومن أهمها :

١ - خداع النفس •

٢ - الكذب •

وهانان السمتان مترابطتان ، فالذى يخدع نفسه ويخدع الناس لا بد أن يكذب على نفسه وعلى الناس •

٣ - الفسق : وهو صفة عامة تشمل كثيرا من الصفات الأخرى للمنافق ، اذ ان الفاسق هو من يؤمن بالاسلام ويلتزم بمبادئه وبأحكام شريعته ظاهرا ، ولكنه يخالفها - عن علم وعن عمد - فى أعماله • قال تعالى : « ان المنافقين هم الفاسقون » (التوبة ٦٧/٩) •

٤ - الفساد فى الأرض مع ادعاء الإصلاح : كما قال تعالى : « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون » (البقرة ١١/٢ - ١٢) •

٥ - السفه واتهام المؤمنين به : قال تعالى : « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء » (البقرة ١٣/٢) •

٦ - التظاهر بالايمان أمام المؤمنين : فاذا انفردوا بمن هم على شاكلتهم (ولا سيما اليهود) (١) صرحوا بكفرهم وبأن تظاهرهم بالايمان ما هو الا استهزاء بالمؤمنين « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم (١) قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » (البقرة ١٤/٢) • ومن ثم فولأؤهم الحقيقى للكفار : « ينتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (النساء ١٣٩/٤) •

٧ - مراعاة الناس بأعمال الخير والعبادة ولا سيما الصلاة :

« واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس » • (النساء ١٤٢/٤) •

(١) راجع سيد قطب : فى ظلال القرآن • ٣٠/١ ، حيث يرجع من سياق السورة وسياق السيرة أن الاشارة الى « شياطينهم » تعنى اليهود • وقد كان اليهود هم الحلفاء الطبيعىون للمنافقين • ويتضح هذا فى أحداث كثيرة منها أنه لما أمر الرسول (ص) يهود بنى النضير بالجلء عن المدينة نتيجة لمحاولتهم قتله (ص) غدرا ، أغراهم المنافقون بالبقاء ، ووعدهم بالعون وقالوا لهم « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطع فيكم أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا نصرؤنهم ولئن نصرؤهم ليؤلن الأدبار ثم لا ينصرون » (الحشر ١١/٥٩ - ١٢) • وراجع محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ١٧٦/٢ - ١٢٦ •

٨ - كثرة الخلف للمؤمنين ليخدعوه عن كفرهم :

« ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم » (التوبة ٥٦/٩) .

« يحلفون بالله لكم ليرضوكم » (٦٢/٩) .

« اتخذوا ايمانهم جنة » (المنافقون ٢/٦٣) .

٩ - اختلاق الأعذار : والمنافق دائما معذار ذو عقلية تبريرية ،

ليتخلفوا عن المشاركة في بناء الجماعة المؤمنة والدفاع عنها ، ولا سيما عن طريق الجهاد والانفاى . كما تخلفوا مثلا عن غزوتى الأحزاب وتبوك .

ففى الأولى تخلفوا عن الدفاع عن المدينة : « ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان يسوتنا عسرة وما هى بعسرة ان يريدون الا فرارا »

(الأحزاب ١٣ / ٣٣) .

وفى النابية تخلفوا عن الخروج مع المؤمنين ، وكانوا يحلفون لهم

بالله : « لو استطعنا اخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون »

(التوبة ٤٢/٩) . « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا

ان يجاهدوا بآموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل

نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » (٨١/٩) .

١٠ - جمال الظاهر وخراب الباطن :

« واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم » .

(المنافقون ٤/٦٣) .

١١ - التآمر على المسلمين : شخصية المنافق بطبيعتها شخصية

متآمرة : يظهر غير ما يبطن ، يعمل فى الظلام ، ينير الفتن والدسائس بين

المسلمين ، ويستعين على ذلك بأساليب الاستتخفاء والتبويت والتربص

والتشبيط والفرقة :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون

ما لا يرضى من القول » (النساء ١٠٨/٤) .

« لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغونكم

الفتنة وفيكم سماعون لهم » (التوبة ٤٧/٩) .

والصفات السابقة كلها تؤكد أن شخصية المنافق فى أعماقها تموج

بالغدر والخيانة . ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيداً العلامات النبی نستدل بها على المنافق ، وهى التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان » (متفق عليه) .

ومن الواضح أن الصفات السابقة تدل على مرض الشخصية وازدواجها كما تدل على أنها شخصية شريرة .

وجود الازدواج فى الشخصية الانسانية هو فى حد ذاته شر ، لأنه انقسام وتجزؤ يودى بوحدتها الباطنة وسلامتها الداخلى . وقد لاحظ بعض المفكرين أن حكمة الفطرة الشعبية . التى تؤثر الخير على الشر تعبر عن نفسها أحياناً عن طريق اللغة :

فالكلمات التى تدل على الازدواجية والنائية فى بعض اللغات تدل فى نفس الوقت على معنى من معانى الشر .

فالبادئة اللاتينية dis- وهى مشنقة من duo (= اثنين) تدخل على كلمات انجليزية كثيرة فتحولها من معنى الخير وما يتصل به الى نقيض معناها : فمثلاً كلمة honourable (أى ذو شرف) تصبح dishonourable (أى لا شرف له) وكلمة grace (وتدل على معانى النبل والفضل) تصبح disgrace (ومعناها العار) ، وكلمة unity (الوحدة) تصبح disunity وتدل على الفرقة وتمزق الشمل (١) .

وشخصية المنافق هى كذلك شخصية انتهازية ، لأن المنافق يلعب على حبلين ، ويحاول أن يرضى فريقين متصارعين ، محاولاً خداعهما معا ، والاستفادة منهما معا ! وهذا الموقف المذبذب هو الذى اتخذهُ المنافقون فى المدينة من الصراع الدائم الرحى بين المؤمنين والكافرين فلا شك أن هوى المنافقين كان مع الكفار ، ولكنهم كانوا ينتظرون حتى تنجلي الموقعة : فإذا انتصر المسلمون زعموا لهم أنهم أسهموا فى انتصارهم وانهم كانوا معهم ! وإذا انتصر الكفار زعموا لهم مثل ذلك :

« الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم تكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » (النساء ١٤١/٤)

Huxley, A. : The Perennial Philosophy, p. 23.

(١)

وهذه الذبذبة النفعية اللاأخلاقية لا تقتصر على منافقي المدينة بل ينصف بها كل منافق : « مذنبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء »
(١٤٣/٤) .

وهذه الذبذبة تدل على أن شخصية المنافق شخصية شريرة لأنها لا أخلاق لها ولا مبادئ ، وذلك كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » .
(متفق عليه)

وهذه الذبذبة تنسبه ما يسمى اليوم في اللغة السياسية بالحياد . وحقيقة هذا الحياد كذب وخداع ، فليس هناك دولة ، ولا سيما دولة اسلامية ، تقف على الحياد ، فهي اما مع الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي .

وهب أن هذا الحياد حقيقى فماذا يعنى وقوف دولة اسلامية على الحباد بين معسكرين كلاهما كافر ؟ أليس يعنى قبول الكفر فى المعسكرين ؟ أو على الأقل عدم المبالاة ؟ أليس المعسكران يتعاونان معا على حرب الاسلام والمسلمين ؟ أليس الأكرم للمسلمين أن يعتزوا باسلامهم ويستقلوا عن الفريقين ؟

أنواع النفاق

للفنفاق صور وأنواع شتى ، يمكن أن نميز منها نوعين رئيسيين :

(١) نفاق التملق :

وهو تقرب الانسان الى الناس (ولا سيما ذوى السلطة والثروة) بما يغضب الله ويرضيه ، كمدحهم بما ليس فيهم ، والتذلل لهم لتحقيق هدف نفعى هو فى الغالب جمع المال أو احراز الجاه أو كلاهما ، أى أن الدافعين الأساسيين لهذا النوع من النفاق هما الطمع والخوف أو الرغبة والرغبة .

وهذا التملق وما يشبهه من تصنع الانسان للناس وتظاهره أمامهم بما ليس فيه وقوله لهم ما لا يعتقد - كل ذلك نفاق يبغضه الاسلام :

(١) الاحياء : ٩٩/١٠ - ١٠٠ .

عن محمد بن زيد أن ناسا قالوا لجدّه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : انا ندخل على سلاطيننا فنقول بخلاف ما نتكلم (به) اذا خرجنا من عندهم . قال : « كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (رواه البخارى) .

أهمية الناس عند المنافق :

للناس أهمية كبرى عند المنافق بوجه عام والمتعلق بوجه خاص ولكنها أهمية نفعية ، أى لا باعتبار قيمهم الانسانية أو مصالحهم أو مضارهم ، بل باعتبارهم وسائل لتحقيق غاياته . ولذلك فهو يرجوهم ويخشاهم طالما يظن انهم يحققون تلك الغايات ، ومن ثم يعمل ما يرضيهم ويتجنب ما يفضيهم . ولا يفهم وزنا لما يرضى الله أو يفضيه ، لأن هذا مقياس المؤمن وليس مقياس الكافر فى الأعمال . ولذلك وصف الله المنافقين بأنهم « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله » . (النساء ١٠٨/٤) .

ان من هدى الاسلام أن يعامل المسلم الناس بما يرضى الله ، وما يرضى الله لابد أن يرضيهم اذا كانوا مهتدين ، ولكنه لا يرضيهم اذا كانوا ضالين ، لأن هؤلاء يتبعون أهواءهم فلا يرضيهم الا ما يسخط الله عز وجل . أما فلسفة هذا النفاق فتنادى دائما بارضاء الناس أو « تحقيق رغبات الجماهير » بأى ثمن ! وغالبا ما يتم ذلك بارضاء غرائزهم وشهواتهم الحيوانية اذا كانوا من العامة ، أو بارضاء غرورهم اذا كانوا من الحكام و « الخاصة » .

وواضح أن هذا أقصر طريق لتحقيق النجاح المادى العاجل الرخيص ، ولكنه أيضا أقصر طريق لاستدعاء غضب الله .

يقول حجة الاسلام (١) : « اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوبا بالتودد اليهم ، والمراعاة لأحلبهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويجر ذلك لا محالة الى التساهل فى العبادات والمراعاة بها ، والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب » . ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف

(١) الاحياء : ٩٩/١٠ - ١٠٠ .

(الجاه) والمال وافسادهما للدين يذئبين ضارين (١) ، وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل (٢) ، اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم ، والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق » .

والرياء عند الامام الغزالي مختص بمراعاة الناس بالعبادة (٣) ، ولكنه كما يفسد العبادة يعرض المرائي في الدنيا « لنشنت الهم بسبب ملاحظه قلوب الخلق ، فان رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يستخط به فريق ، ورضى بعضهم فى سخط بعضهم » ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم وايتثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقتة يوم القيامة » .

ومن أروع المقارنات بين نفسية المؤمن والمنافق وموقف كل منهما من الحياة والناس ، قول حاتم الأصم (٤) :

« المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد الا من الله ، والمنافق راج كل أحد الا الله . والمؤمن آمن من كل أحد الا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد الا من الله . والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله . والمؤمن يحسن ويبكى ، والمنافق يسىء ويضحك . والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملا . والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقطع ويرجو الحصاد . والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد » .

(ب) نفاق الكفر :

وهو أخبث أنواع النفاق ، لأنه خداع للمؤمنين ، لا لمجرد تحقيق

(١) الحديث : « ما ذئبان ضاريان أرسلتا فى رربيه غنم بأسرع افسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم » . (الاحياء ٨٤/١٠) وقد رواه الرمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث : « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » المرجع السابق .

(٣) الرجوع السابق ص ١١٦ .

(٤) السابق ١٢٦/٨ .

نفع لفرد أو دفع ضرر عنه ، بل بهدف الاضرار بهم كافة ، والقضاء عليهم جميعا ، واطفاء نور الله فى الأرض .

وهذا النوع هو الذى كان يستعمله المنافقون فى المدينة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فكانوا يتظاهرون بالايمان بينما ينصلون سرا بأعداء المؤمنين ولا سيما اليهود ، ويتآمرون معهم على حرب الاسلام والمسلمين .

ولا شك أنهم كانوا أشد خطرا من الكفار ، لأنهم كانوا يختلطون بالمسلمين ويتجسسون عليهم ، وينقلون أسرارهم الى أعدائهم ، أو يقومون بنشر الاشاعات الكاذبة التى تثير الذعر والبلبلة بين صفوف المسلمين ، كما فعلوا أثناء غزوة الأحزاب وفى حديث الافك . أو يقومون بما ينسب للمسلمين ، ويخذلهم عن القتال ، كانسحابهم من صفوف المسلمين قبيل معركة أحد أو تخلفهم كلية عن القتال بأعذار واهية كاذبة كما فعلوا فى غزوة تبوك ، أو قيامهم بمشروعات تهدف الى اثاره الفتنة والفرقة بين المسلمين كانشائهم مسجد الضرار .

وهذه الأعمال وأمثالها تشبه ما يقوم به الطابور الخامس فى العصر الحاضر من عمليات التجسس والتخريب والتشبيط واثارة الفتن داخل المجتمع لمساعدة العدو الخارجى . ولذلك أمر الله المؤمنين أن يعدوا كل ما استطاعوا من قوة لمواجهة كلاً النوعين من العدو :

العدو الكافر المكاشف بعداوته ، والعدو المنافق المندس بين صفوفهم:

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (الأنفال ٨/٦٠) .

وبالرغم من وجود المنافقين فى مجتمع المدينة ، واستمرار مؤامراتهم فانهم فشلوا تماما فى تحقيق هدفهم وهو القضاء على الجماعة المؤمنة فى المدينة . ودائما كان ينكشف نفاقهم ويبطل كيدهم ، لأن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا ملتزمين بالاسلام ، والاسلام بطبيعته الواضحة المستقيمة التى ترفض الالتواء والعوج ، وبشموله لظاهر الانسان وباطنه ، وبتربيته المسلمين على اليقظة لكل خطر والاعداد له - لا يسمح للنفاق أن يظل مستورا لمدة طويلة .

فاذا كان المنافق يستطيع ان يخدع المؤمنين عن عقيدته - فان أعماله وأخلاقه ومواقفه من المؤمنين لا تلبث أن تكشفه .

ففى باب العبادات مثلا لابد أن ينكشف ، لأنه يتهرب من أداء الصلاة ولا يؤديها الا كارها متكاسلا ؛ لأنه يؤديها رياء كما قال تعالى :

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » (النساء ١٤٢/٤) .
وكذلك يتهرب من الانفاق ولا يؤديه الا كارها كالصلاة :

« ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون »
(التوبة ٥٤/٩)

وكيف يشارك فى الانفاق على حاجات الجماعة المؤمنة وهو كافر ؟
ولذلك حكى القرآن عن المنافقين انهم قاموا بالدعوة الى منح الانفاق على المسلمين ليرغموهم على التخلي عن الرسول ورسالته :

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا »
(المنافقون : ٧/٦٣)

وهذه الدعوة تشبه سياسة التجويع والمقاطعة الاقتصادية التى تنتهجها الدول الكافرة - كأمريكا - لارغام بعض الدول الاسلامية على التخلي عن الاسلام .

أما أخلاق المنافق فهى كذلك من أهم العلامات التى تدل المسلمين على نفاقه ، ومن تلك الأخلاق الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ظهرت هذه الأخلاق كلها فى نكت المنافقين فى المدينة بوعدهم بأن يتصدقوا اذا أغناهم الله :

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقىونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (التوبة ٧٥/٩ - ٧٧) .

ومن اخلاق المنافق أنه فاسق . ولذلك يدعو الناس الى عكس ما يدعوهم اليه الاسلام فيأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون »
(التوبة ٦٧/٩) .

وأما المواقف العدائية للمنافق فتظهر حتما في أوقات الصراع بين المؤمنين والكافرين وما أكثر تلك الأوقات ! حيث ينحاز المنافق الى الكافرين ، لأنه يواليهم على المؤمنين ، مستشعرا في هذا الولاء العزة لنفسه الذليلة :

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما • الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » •
(النساء ١٣٨/٤ - ١٣٩)

(أليس هذا ما يفعله كثير من المسلمين اليوم ولا سيما حكامهم حيث يوالون الكفار والدول الكافرة ضد المؤمنين ؟) •

وهكذا تنكشف أضغان المنافقين كما قال الله تعالى :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم »
(محمد ٢٩/٤٧) •

وبالرغم من كل هذا فقد اختط الاسلام خطة حكيمة في معاملة المنافقين تجمع بين التسامح والحذر •

أما التسامح فواضح في معاملة الاسلام للمنافقين في أمور الدنيا معاملة المسلمين وذلك بحسب ظاهرهم • وهذه المعاملة تفتح لهم باب التوبة على مصراعيه ليتطهروا من نجاسة الكفر •

« ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا •
الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما » (النساء ١٤٥/٤ - ١٤٦) •

أما الحذر فقد نبه الاسلام المسلمين الى خطرهم ، وحذرهم من الركون اليهم ، أو الثقة بهم ، أو التخلق بأخلاقهم ، كما دلهم على أهم السمات التي يتعرفون بها على المنافق فيتقوا شره • وقد قال بعض الحكماء : « ملابسة المنافق بلا تيقظ كملاقاة العدو بلا سلاح » (١) •

ومهما يكن فالاسلام يرفض النفاق بكل صوره وأنواعه ، لأنه في حقيقته تفضيل للضلال على الهدى ، والعوج على الاستقامة ، ومن ثم فحياة المنافقين تشبه عملية تجارية خاسرة لأنهم :

« اشتمروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »
(البقرة ١٦/٢)

(١) العامري : السعادة والاسعاد ص ١٤٧ •

ولذلك يربى الاسلام شخصية المسلم على الاستقامة واستواء السر والعلن ، وأن يكون ظاهر المسلم تعبيرا أميناً عن باطنه ، فيكون مؤمن اللسان والقلب معا ، يقول الكلمة الطيبة ويعمل العمل الصالح ، ينطق بكلمة الشهادة ويؤمن بها ويحيا ويموت عليها .

ولا يجوز للمسلم أن يتخلى عن هذه القاعدة الا في حالة الاستثناء أى في حالة الضرورة القصوى ، وهى حالة الاكراه المفضى الى التهلكة ، كما قال تعالى :

« الا من اكراه وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل ١٠٦/١٦) .

وكذلك ولاء المسلم ينبغي ألا يعطيه الكافرين الا في حالة الاكراه وهى حالة اتقاء ضرر محقق منهم ، وهذه الحالة مؤقتة ومشروطة بالتأكد من تحقق الضرر ، ولذلك يزول حكمها بزوال الخوف من الضرر كما قال تعالى :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتقوا منهم تقاة » (آل عمران ٢٨/٣) .

علاج النفاق .

(١) نفاق التملق :

ان الدافعين الأساسيين للتملق هما الخوف والطمع .

والتملق مرض نفسى واجتماعى ينتشر بين المسلمين كالوباء فى عصور الانحطاط ، وهى العصور التى يبتعدون فيها عن دينهم ، ويضعف اعتزازهم به ، وذلك لأنه يضعف ايمانهم بالله ، فيضعف خوفهم منه ورجاؤهم فيه ، بينما يقوى ايمانهم بالحياة الدنيا ويشتد حرصهم عليها ، ومن ثم تزداد أهمية الناس عندهم ، فيزداد الخوف منهم والطمع فيما فى أيديهم ، ولا سيما فى المال والجاه .

ونجد ظاهرة التملق واضحة فى تاريخ الأدب والتاريخ السياسى والتربية المعاصرة .

ففى تاريخ الأدب نجدها واضحة فى التكسب بالشعر عن طريق المدح الكاذب للخلفاء والأمراء وذوي المال والجاه .

وفى التاريخ السياسى نجدها واضحة فى العلاقات بين الحاكم

والرعية ، حيث تعبر الرعية عن احترامها للحاكم بأساليب لا تتفق مع المفهوم الاسلامي للعلاقة بين مستخلف مسئول عن رعيته ، ورعية مسئولة عن اختياره وعزله - وإنما هي أقرب الى العلاقة بين السيد والعبد : السيد المطلق التصرف الذي لا يسأل عما يفعل ، والعبد الذي لا يملك الا الرضوخ والخضوع ، بل ان بعض المجتمعات الإسلامية في غرب أفريقيا تحيي الرعية أميرها بما يشبه الركوع والسجود !

وفي التربية المعاصرة نجد أطفال المسلمين ينشأون غالباً على الخوف من آبائهم ، فلا يجروئون على التعبير عن أنفسهم تعبيراً صريحاً مستقيماً ، دون لف أو دوران .

وهذه التربية القائمة على التخويف تؤدي الى عواقب وخيمة في الحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين .

ففي الحياة الاجتماعية ينتشر تملق الضعفاء للأقوياء ، والمرؤوسين للرؤساء ، ويترتب على هذا ألا يقدر المسلم لجهده وكفاءته واسهامه في خدمة الجماعة ، بل لتملقه أفراداً معدودين من « ذوى الجاه » و « ذوى النفوذ » . ونتيجة لذلك يتولى المناصب غالباً من لا يصلحون لها ، بينما تبعد أو تباعد العقول الكبيرة والكفاءات العالية فيفقد المجتمع خير عناصره ، وبذلك يضعف ويموت ببطء لأنه يتآكل من داخله بانتشار الفساد وتولية المفسدين كما تتآكل الشجرة بالسوس ينخرها من داخلها .

أما في الحياة السياسية فهناك علاقة وثيقة بين النفاق والاستبداد السياسى . ومن أهم الظواهر المرتبطة بطغيان الحكام المسلمين اليوم إبعاد ذوى الخلق والكفاءة والاخلاص فى النصيحة ، وتقريب المنافقين الذين يجيدون المدح الكاذب والتملق الرخيص .

ولتصحيح هذا الموقف يجب أن نبدأ من البيت فنربى أولادنا (بنين وبنات) على أدب الإسلام ، وهو يقضى بالحق وإبداء الراى فى جو من الشورى وهى من أعظم وأهم قواعد السلوك فى الحياة الإسلامية بكل مستوياتها : من البيت الى مكان العمل الى ادارة الدولة . فمن أهم صفات المؤمنين فى القرآن أن أمورهم تقرر بالشورى :

« وأمرهم شورى بينهم » (الشورى ٤٢/٣٨) .

وفى موعظة لقمان لابنه نراه ينصحه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مع ما يقتضيه ذلك من الصراحة فى القول والجرأة فى الحق وكذلك ينصحه بأن يكون باراً بوالديه وفى نفس الوقت أن يكون له من

استقلال الفكر وشجاعة الرأي ما يمكنه من أن يعصيهما ان جاهداه على
شرك (لقمان ١٤/٣١ ، ١٧) .

بل ان الله تعالى يأمر المؤمنين جميعا أن يلتزموا الحق والعدل ولو
أدى ذلك الى أن يتخذوا مواقف ضد أنفسهم ووالديهم وأقاربهم .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على
أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (النساء ١٣٥/٤) .

وهناك درس تربوي عظيم كذلك في قصة عمر مع الأولاد . فقد
فروا من طريقه الا ولدا واحدا وقف مطمئنا يبين للخليفة أنه لم ير سببا
يدعو الى فراره ، فليست الطريق ضيقة فيوسعها له ، ولم يرتكب جريمة
فيخافه .

وما لم نرب أولادنا ليكونوا مثل هذا الولد فلن يكون لنا حاكم مثل
عمر .

ومن الواضح أن ابداء الرأي لا يستلزم سوء الأدب ، فالاسلام يربي
المسلم على أن يجهر بالحق في أدب كما قال تعالى :

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم »
(النساء ١٤٨/٤)

ولذلك أمر الله تعالى الانسان المسلم حين يخالف والديه فلا يطيعهما
في المعصية أن يستمر في معاملتهما بالاحسان ، ومصاحبتهما بالمعروف .
(لقمان ١٤/٣١) .

وكذلك نصح لقمان ابنه بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
ألا يصغر خذه للناس أي لا يكلمهم أو يعاملهم بوقاحة واساءة أدب .
(لقمان ١٨/٣١) .

هذا عن الخوف ،

أما الطمع فالمتملق يحب المال والشهرة ، ويحب التملك للماديات
والتمتع بها والاستكثار منها والتفاخر بها ، وطلب الجاه والمنزلة بين الناس
عن طريقها . وهذا يدل على حرص شديد على أعراض الدنيا كغاية في
ذاتها ، لا كوسيلة الى ابتغاء رضوان الله عن طريق الأعمال الصالحة .
وهذا التيار واضح أيضا في البيت المسلم والمجتمع المسلم .

فنرى الأولاد يقلدون والديهم في تمجيد الماديات والاستكثار منها والتفاخر بها أمام الناس ، وتقييم الإنسان المسلم بقدر ما يملك منها ، ومن المال الذى يشتريها ، والجاه الذى يساعد على اقتنائها .

وتحت تأثير الحضارة المادية المعاصرة ، وتأثير وسائل الاعلام التى تعلق الأقدام وتتحكم الى حد كبير فى شهرة الأشخاص (ومع الأشخاص الأفكار والمبادئ والمذاهب) ، ومع غياب القيم الاسلامية عن البيت والمدرسة والمجتمع - يزداد هذا التيار قوة بين المسلمين يوما بعد يوم .

ولا يصد هذا التيار الا تيار اسلامى أقوى منه ، يصحح فهم المسلم للمال والشهرة والتمتع بالطيبات والعلاقة بالناس : ومن ثم يصحح موقفه من الحياة والأحياء .

ولا يتم هذا التصحيح الا بأمرين :

- ١ - حسن صلة المسلم بالله .
 - ٢ - اتخاذ هدى الله وحده مرشدا له فى تصحيح فهمه وسلوكه .
- فاذا حسنت صلة العبد بربه أيقن أن ضره ونفعه ، ورزقه وأجله ، وحياته وموته ، ومصيره ومصير الناس جميعا بيد الله وحده :
- « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » (الأنعام ١٨/٦) .
- فلا يكون خوف الا منه ، ولا طمع الا فيه .

وبهذا يتحرر المسلم تحررا حقيقيا من الخوف من الناس ومن الطمع مما فى أيديهم من مال أو جاه . ولا يعود يلهث وراءهم كالكلب بل يجد فى السعى وشرف العمل والكسب عزة تغنيه عن مذلة التملق ، ويقنع من المال بما يكفى الضرورات ويغنيه عن سؤال الناس . وكذلك لا يسعى وراء شهرة لشخصه ، بل يسعى وراء تبين هدى الله ونشر نوره بين الناس .

فذلك خير وأبقى .

(ب) نفاق الكفر :

يصعب جدا علاج هذا النفاق ، لأنه كما رأينا من تحليله مرض نفسى خبيث ، وهو كذلك داء اجتماعى عضال .

ولعل أفضل وسيلة لعلاجها هى وجود المجتمع المسلم الملتزم

بالاسلام . وذلك لان الخطوة الأولى الطبيعية والضرورية لعلاج أى مرض .
هى اكتشافه . ولا يسهل اكتشاف النفاق فى المجتمع الكافر ، لأن النفاق
نوع من ضلال الكفر ، ولا يكشف الضلال بالضلال بل بالهدى . فجرائم
النفاق تعيش وتتكاثر فى الظلام ، و لا يمكن اكتشافها الا اذا سلطت
عليها أضواء الهدى .

وقد رأينا أن المنافق يمكن ، بل ويسهل ، اكتشافه فى المجتمع
المسلم ، لأن أعماله وأخلاقه ومواقفه جميعا تتعارض مع الاسلام .

وفى المجتمع المسلم تتحدد الأفعال الانسانية بمقاييس الهدى .
والضلال وبمقتضى هذه المقاييس تتحدد الفروق بين الناس وبها يتميزون .

أما فى المجتمع الضال (أى الكافر أو غير الملتزم بالاسلام) فتتميع
هذه الفروق لانعدام تلك المقاييس أو اضطرابها ، وتنشأ فروق أخرى
وفقا لمقاييس مادية كافرة كالفرق فى الدخل أو اللون أو الطبقة
الاجتماعية أو النعرة القومية أو العنصرية ، وبمقتضى هذه المقاييس يتفاضل
الناس ويتميزون .

ومعاملة الاسلام للمنافقين حسب ظاهريهم هى كذلك نوع من العلاج
الحكيم ، فهذه المعاملة لا تستهين بخطر النفاق ولا تهمل الاعداد له . ولكنها
تفرق بين المجاهر بالكفر والعداوة والمستخفى بهما . فلا يجوز فى ميزان
الحكمة والعدالة أن يسوى بين المجرم المجاهر بجريمته ، المتحدى علنا
لسلطة القانون والدولة وسلامة المجتمع ، والمجرم المستخفى الذى ينكر
جريمته ويتبرأ منها اذا ووجه بها . فالمستخفى بجريمته - رغم خطورتها -
شره محدود ، اما المجاهر فشره مستطير الى المجتمع كله . ولذلك أجمع
الفقهاء - مثلا - على تشديد عقوبة المجاهر بالافطار فى رمضان .

هذه المعاملة تتيح للمنافق أن يراجع نفسه ، وتفتح له أبواب العودة
- فى هدوء - الى الايمان ظاهرا وباطنا دون أن يفقد ماء وجهه .

وفى الوقت نفسه يحاول الاسلام أن يعجل بهذه العودة عن طريق
اختلاط المؤمنين بالمنافقين ، ومحاولة اقناعهم بالحكمة والموعظة والأسوة
الحسنة أن تجارة النفاق خاسرة ، وأن المؤمنين وحدهم « يرجون تجارة
لن تبور » (فاطر ٢٩/٣٥) .

ولذلك أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاغضاء عن مواجهتهم

والاستمرار في وعظهم بالقول البليغ الذي يصل الى أعماق نفوسهم لعله
يغيرها :

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم
في أنفسهم قولاً بليغاً » (النساء ٦٣/٤) .

نموذج لشخصية المنافق

عبد الله بن أبي بن سلول

— كان زعيم المنافقين في المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان مرشحا لرياسة المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

صفه على ضياع رياسته كان أهم أسباب كفره . وخوفه من قوة المسلمين المتزايدة في المدينة كان من أهم أسباب نفاقه .
وكل أعماله ومواقفه من المؤمنين في المدينة تدل على نفاقه ، وتؤكد اعتلال شخصيته .

وفيما يلي أمثلة منها (١) :

١ - وقف دائما مع اليهود ضد المسلمين :

— فنتيجة لخيانة يهود بنى قينقاع عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد انتصارهم في بدر — حذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم فقال تعالى :

« واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (الأنفال ٨ / ٥٨) .

فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم ، ولكن عبد الله بن أبي تشبث بذلك الحلف وقال : « انى رجل أخشى الدوائر » . وهو ما يشير اليه القرآن في قوله تعالى :

« فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان نصيبنا دائرة فعسى الله ان ياتى بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى انفسهم نادمين » (المائدة ٥ / ٥٢) .

— لما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بانخراج يهود بنى النضير من المدينة لخيانتهم — (اذ حاولوا قتله (ص) غدرا) — أغراهم عبد الله بن أبي وأتباعه من المنافقين بالبقاء ووعدوهم الاشتراك معهم في قتال المؤمنين ، كما قال تعالى :

(١) راجع سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢٨ / ١٣٠ ومابعدها .

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب
لئن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلتهم
لنصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم
ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون »
(الحشر ١١/٥٩ - ١٢) .

٢ - حاول إثارة الفتنة بين المسلمين :

— بعد غزوة بنى المصطلق اختصم أجير لعمر بن الخطاب مع حليف
للخزرج على ماء فضرب الأجير الحليف فاستصرخ بقومه ، واستصرخ الأجير
بالمهاجرين .

وكادت أن تكون فتنة بين المهاجرين والأنصار .

لولا أن خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم ثم كلم
المضروب حتى أسقط حقه وسكنت الفتنة .

فلما بلغ عبد الله بن أبي نبيأ الخصام غضب وقال لرهط من الخزرج :
ما رأيتم كالأيوم مذلة ! أو قد فعلوها ؟ نافرونا في ديارهم ؟ والله ما نحن
والمهاجرين إلا كما يقول الأول : سمن كلبك يأكأك ! أما والله « لئن رجعنا
إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » (المنافقون ٨/٦٣) . ثم دعا قومه
ألا ينفقوا على المسلمين حتى ينفضوا . واستأذن عمر الرسول في قتل
ابن أبي أو أن يأمر أحدا بقتله فنهاه عن ذلك وقال : كيف يا عمر إذا
تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

وكادت الفتنة تعود أشده مما كانت لولا أن عاجلها الرسول صلى الله
عليه وسلم بحكمته ، فأذن بالرحيل حتى شغل الناس عن الموضوع .
وكلم بعض الأنصار عبد الله بن أبي في أن يطلب من الرسول صلى الله
عليه وسلم الاستغفار ، فلوى رأسه واستكبر . ثم نزلت سورة المنافقين .

٣ - وعقب غزوة بنى المصطلق أيضا ذاع حديث الافك المشهور
والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول !

ونعوذ بالله من النفاق والمنافقين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم : وهو المصدر الرئيسى لهذه الدراسة .
- ابن تيمية ، تقى الدين أحمد بن عبد الحلیم : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، ط رابعة دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٩ .
- ابن حنبل ، أحمد بن محمد : المسند*
- ابن ماجه ، محمد بن يزيد : كتاب السنن*
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق : الفهرست ، نشرة فلوجل ليبزج ١٨٧٠
- اسد ، محمد : الاسلام على مفترق الطرق (بالانجليزية) لأهور ١٩٦٣
- أبو داود ، سليمان الأشعث : كتاب السنن*
- البخارى ، محمد بن اسماعيل : الجامع الصحيح*
- البنا ، حسن : مجموعة رسائل الامام الشهيد ط . ثمانية بيروت ١٩٦٥/١٣٨٤ .
- البوطى ، سعيد رمضان : فقه السيرة ط . ثمانية دار الفكر ، القاهرة ١٩٨٠/١٤٠٠ .
- بوكاى ، موريس : دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة الترجمة العربية ط . رابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- البيرونى ، أبو الريحان محمد بن أحمد : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة حيدر آباد ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
- البيهقى ، أبو بكر أحمد بن الحسين : كتاب السنن الكبرى*
- الترمذى ، محمد بن عيسى : الجامع الصحيح*
- التونى ، محمد شوكت : محمد محرر العبيد ، القاهرة ١٩٧٥ .
- جارودى ، رجاء : الاسلام وأزمة الغرب ، محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٣/١/٥ .

جميلة ، مريم : الحضارة الغربية تدين نفسها (بالانجليزية) جزآن
لاهور ، ١٩٧٠ .

• حوى ، سعيد : الاسلام ٤ أجزاء : القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ .
• جند الله ثقافة وأخلاقا ، ط٠ : ثانيا القاهرة ، بلا تاريخ .

• الرسول ، جزآن ط٠ : ثانيا ، بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧ .
• سابق ، سيد : فقه السنة ، ٣ أجزاء (دار الكتاب العربى) بيروت ،
١٣٩١ - ١٣٩٧ (١٩٧١ - ١٩٧٧) .

• السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن : الجامع الصغير فى احاديث البشير
النذير ، جزآن - القاهرة - بلا تاريخ .

• شلبى ، احمد : أديان الهند الكبرى ، ط٠ : ثانيا ، القاهرة ١٩٦٦ .
• المسيحية ، ط٠ : ثانيا ، القاهرة ١٩٦٦ .

• العامرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف : كتاب الاعلام بمناقب الإسلام ،
تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ، القاهرة (دار الكاتب العربى -
ترائنا) ١٣٨٧/١٩٦٧ .

• السعادة والاسعاد ، صورة للمخطوط ، نشرة مجتبى مينوى -
فيزبادن ١٩٥٧ - ١٩٥٨ .

• عبد الباقي ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، كتاب
الشعب - القاهرة ١٣٧٨ هـ .

• عيسى ، كمال محمد : خصائص مدرسة النبوة ، دار الشروق - جدة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

• غراب ، أحمد عبد الحميد : الاسلام والعلم القاهرة ١٤٠١/١٩٨١ .

• الاقناع فى القرآن (بالانجليزية) لندن ١٩٨١ .

• الاسلام فى الحياة اليومية (بالانجليزية) تحت الطبع .

• الغزالى ، أبو حامد : احياء علوم الدين ط٠ : ثانيا القاهرة (دار الفكر)
١٩٨٠/١٤٠٠ .

• الغزالى ، محمد : خلق المسلم دمشق دار القلم ١٤٠٢/١٩٨٢ م .

• القرضاوى ، يوسف : الحلال والحرام فى الاسلام ط ١٣ بيروت
١٩٨٠/١٤٠٠ .

- الخصائص العامة للإسلام ، القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧
- فقه الزكاة : جزآن ، ط ثالثة ، بيروت ١٣٨٩/١٩٦٩ .
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، كتاب الأمة ، الدوحة ، ١٤٠٢ هـ .
- قطب ، سيد : معالم فى الطريق ط٠ سادسة دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩ .
- فى ظلال القرآن ط٠ سادسة ثلاثين جزءا ، القاهرة - بلا تاريخ .
- قطب ، محمد : شبهات حول الإسلام ط ١٤ بيروت دار الشروق ، ١٤٠١/١٩٨١ .
- قبسات من الرسول ، ط ٨ بيروت دار الشروق ١٤٠٣/١٩٨٣
- منهج التربية الإسلامية ، جزآن ج ١ ط ٧ ، ج ٢ ط ٤ ، بيروت دار الشروق ١٤٠٣/١٩٨٣ .
- كاريل ، الكسيس : الانسان ذلك المجهول . ترجمة شفيق أسعد فريد بيروت (مكتبة المعارف) .
- كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الماوردى ، أبو الحسن : الأحكام السلطانية ط٠ ثانية ، القاهرة ١٣٨٦/١٩٦٦ ، ط بيروت ١٣٩٨/١٩٧٨ .
- مسلم ، ابن الحجاج النيسابورى : كتاب الصحيح*
- المسعودى : التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨ .
- المودودى : أبو الأعلى : مبادئ الإسلام ، الدار السعودية - جدة ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م .
- المبادئ الأساسية لفهم القرآن ، ط٠ ثالثة ، القاهرة ، ١٣٩١/١٩٧١ .

المودودي وحسن البنا وسيد قطب : الجهاد في سبيل الله ، بيروت ،
١٩٦٩/١٣٨٩ .

الندوي ، أبو الحسن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط٠ ثانية ،
الكويت ١٩٧٠/١٣٩٠ .

النووي ، أبو زكريا يحيى : رياض الصالحين ، بيروت ١٩٨٢/١٤٠٢ .

ENGLISH REFERENCES

Abu al-Ala Mawdudi :

Fundamentals of Islam. 2nd ed. Lahore 1976.

The Meaning of the Qur'an. Lahore 1970.

The Ethical View point of Islam. Lahore 1966.

Islamic Way of Life, Kuwait 1393/1973.

Ahmad Abd al-Hamid Ghorab :

The Qur'anic Reasoning. London 1981.

Islam In Daily Life London 1984.

Huxley, A. :

The Perennial Philosophy, 2nd ed. London 1959.

Maryam Jamila :

Western Civilization Condemned By Itself. 2 Vols. Lahore, 1970.

Islam in Theory and Practice, Lahore, 1967.

Islam and Orientalism, Lahore, 1971.

Maurice Bucaille :

The Bible, The Qur'an and Science, USA 1978.

Muhammad Abu al-Qasim :

The Ethics of al-Ghazali, Malaysia, 1975.

The Ethics of al-Ghazali, 1975.

Muhammad Asad :

Islam at the Cross Roads, Lahore, 1963.

Principles of State And Government in Islam, California 1961.

Muhammad Qutb :

Islam the Misunderstood Religion, Kuwait, 1967.

Sayyid Qutb :

In the Shade of the Qur'an, Vol. 30, London 1979.

Southern, R. W. :

**Western Views of Islam in the Middle Ages, Harvard University Press
1962.**

Toynbee, A. :

A Study of History, London, 1965.

الفهرس

صفحة

٣	مقدمة
٥	١ - مقدمة - الشخصية الانسانية في غير الاسلام
١٤	٢ - الهدى
٢٥	٣ - شخصية المهتدى وهو المسلم الحق
٢٧	العلم
٣٣	تدبر القرآن
٤٦	الايمان
٥٩	العمل - الايمان أخلاق وأعمال
٦٤	العبادات
٧٨	أداء الأمانات
٩٤	تجنب المحرمات
٩٧	الآثار النفسية للاهتداء
١٠٢	نموذج الهادى المهتدى الكامل (صلى الله عليه وسلم)
١١٢	٤ - شخصية الضال
١١٥	شخصية الضال الكافر
١٣٩	أسباب اضلال الكافر
١٤٤	لماذج قرآنية لشخصية الكافر
١٥١	٥ - شخصية المنافق
١٦٧	نموذج لشخصية المنافق
١٦٩	المصادر والمراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٥٣٥٢
ISBN ٤ - ٠٧١٧ - ٠١ - ٩٧٧ -

هذا الكتاب :

إن المجتمعات الإسلامية تقيم شخصية الإنسان عادة حسب مقاييس مادية : كدخله ، أو طبقته الاجتماعية ، أو جنسه ، أو لون جلده . بينما تقيم شخصية الإنسان في القرآن حسب مقاييس ربانية تميز بين الهدى والضلال ، وتحدد خصائص المهتدي والضال .

وهذا الكتاب دراسة تربوية هادفة لشخصية المسلم والكافر والمنافق على ضوء القرآن الكريم ، ومحاولة جادة لبناء الشخصية المسلمة حتى تسهم في عملية التغيير الجذري لأوضاع المسلمين الحاضرة .